دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	النجاة في ضوء القرآن الكريم : دراسة موضوعية
المؤلف الرئيسي:	الجربوع، عبد العزيز بن محمد عبد الرحمن
مؤلفين آخرين:	العيدي، محمد بن عبد االله بن محمد(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2012
موقع:	بريدة
الصفحات:	1 - 877
رقم MD:	613050
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة القصيم
الكلية:	كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدولة:	السعودية
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	القرآن الكريم، النجاة، التفسير الموضوعي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/613050

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفصل الثالث: أسباب النجاة

(وفيه مبحثان):

المبحث الأول: أسباب النجاة الحقيقية.

المبحث الثاني: أسباب النجاة الوهمية.

المبحث الأول: أسباب النجاة الحقيقية

- الأسباب البشرية؛ (وفيه ما يلي):
  - تحديد المقصود بالأسباب البشرية.
  ١. الإيمان بالله تعالى
  ٢. الإخلاص.
  ٣. التقوى.
  ٤. الشكر
  ٥. طاعة الله ورسوله-ﷺ-.
  ٦. الاستجابة لداعي حكم الله ورسوله-ﷺ-.
  ٧. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
  ٨. الاستغفار.
  ٩. التوبة.
  ١٠. الدعاء قبل فوات أوانه.
  ١١. التوكل، والأسباب المادية.
  ١٢. الجهاد في سبيل الله.
  ١٣. الصبر.
  ١٤. تقديم الخوف من الله على الخوف من غيره.
- **الأسباب الربانية؛** (وفيه ما يلي):
  - تمهيد
  ١. رحمة الله.
  ٢. قدرة الله، وقوته.
  ٣. وعد الله، ومشيئته.
  ٤. سبق الحسنى من الله.
  ٥. فضل الله ونعمته.

الأسباب البشرية:

تحديد المقصود بالأسباب البشرية:

الاعتقادات، والأقوال، والأعمال القلبية أو الجسدية، التي بيّن القرآن أنها سبب نجاة الناجين، أو أنها سبب لنجاة من سينجون؛ هي التي سيتم تناولها هنا؛ بشرط أن يكون القرآن قد بيّن أنها أسباباً؛ تصريحاً، أو تلويحاً وإشارة، وذلك لأن كل هذا البحث؛ إنما هو عن النجاة في ضوء القرآن الكريم.

إن القرآن قد عرض لأسبابٍ بشرية، وأخرى ربانية؛ فالأولى؛ مثل قول الله تعالى عن النار: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ مريم: ٧١ ـ ٧٢، فهو هنا بيّن أن التقوى هي سبب النجاة من النار، والتقوى سبب بشري، يوفق الله له من شاء من عباده. والثانية؛ مثل قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ الأنبياء: ٩، فبيّن الله هنا أن مشيئته كانت سبباً في نجاة من نجوا، ومشيئة الله؛ صفة له، فهي سبب رباني للنجاة.

يلاحظ أن بعض الآيات يُذكر فيها أكثر من سببٍ للنجاة. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٢٠؛ فالصبر، والتقوى؛ سببان من أسباب النجاة من كيد الأعداء. وكقوله تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ النمل: ٥٣؛ فالإيمان، والتقوى؛ سببان من أسباب النجاة من عذاب الله الدنيوي، كما أن كل واحدٍ منهما سببٌ مستقل من أسباب النجاة من ذلك؛ فإذا ذُكِرَتْ أمورٌ متعددة لنتيجة واحدة فإن ذلك يكون أحياناً من باب توارد الأسباب[1]؛ وأحياناً يكون لتداخلهما عند الإطلاق، ودلالة كل واحدٍ منهما على معنى عند التفصيل[1]؛ وهذا سيتبين لك -بمشيئة الله- بشكل واضح عند دراسة الأسباب البشرية الآتية:

---

(١) وذلك كقول الله تعالى عن أهل النار: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦){المدثر}؛ فترك

١- الإيمان بالله تعالى:

خطأ من ظن أن الإيمان لا يكفي لتحقيق النجاة:

يظن البعض أن الإيمان ليس كافياً لتحقيق النجاة، وإنما يشترط أن ينضم إليه التقوى، ويستدلون على صحة كلامهم بإيمان إبليس؛ فهو مؤمن بظنهم[٢] -وهو لازم قول الأشاعرة[٣]- ، ولم ينجه إيمانه من لعنة الله، ولا من طرده له، ولا من تخليده في النار في الآخرة، مما يبين- بزعمهم- أن الإيمان لوحده ليس كافياً في تحقيق النجاة.

وإيمان إبليس-المزعوم- قول موروث -فيما يظهر- من عقائد بعض طوائف النصارى[٤]. ولا شك أن هذا القول من أشنع المقولات، ومن أعظمهما مخالفة للقرآن الكريم،

الصلاة سببٌ لدخول النار، وترك الزكاة سببٌ آخر، وكذلك التكذيب بيوم الدين، فهي أسبابٌ متعددة لدخول النار، وكل واحدٍ منهما سببٌ مستقلٌ لدخولها.

(١) وذلك كقوله تعالى:(الذين آمنوا وكانوا يتقون) النمل: ٥٣؛ فإن الإيمان عند إفراده بالذكر؛ تدخل فيه التقوى؛ فالتقوى من الإيمان، وذكرها معه هنا للدلالة على أهميتها في النجاة، أو لأمر بلاغي آخر.

يلاحظ في هذه الحالة؛ أني قد أكتفي بذكر الآية عند أحد الأسباب التي دلت عليها، وذلك لأن ما قيل في هذا السبب الذي تناولته الآية؛ يقال نفسه في السبب الآخر المذكور فيها. وأحياناً أذكرها عند تناول كل سببٍ من الأسباب المذكورة فيها؛ وهذا غالباً إنما يكون عندما لا يكون للأسباب المذكورة فيها ذكرٌ في آياتٍ أخر.

(٢) نُقل ذلك عن أبي حنيفة، لكن جزم كثيرون بتوبته منه، ومما يؤكد ذلك أن هذه العقيدة مخالفة لعقيدة أبي حنيفة الثابتة عنه والتي عليها أتباعه.[انظر: السنة لعبد الله بن الإمام أحمد١/٢١٩، والانتصار ليحيى بن أبي الخير العمراني٣/٧٩٨ مع تعليق محققه/سعود الخلف].

(٣) أنظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٣٣١.

(٤) انظر: إظهار الحق، لمحمد رحمت الله الهندي٢/٣٧٢.

فالقرآن قد بيّن في آياتٍ كثيرة كفر إبليس[١]؛ فكيف يجرؤ أحد أن يقول بإيمانه، وبيّن القرآن في آياتٍ كثيرة تحقق النجاة للمؤمنين[٢]؛ فكيف يجرؤ أحدٌ أن يقول خلاف ذلك.

إن الوقوع في هذا الخطأ الشنيع؛ ناتجٌ عن اعتماد تعريف المرجئة[٣] -الذين هم شرٌ من الأزارقة[٤]- للإيمان[٥]، فهم يظنون أن الإيمان هو المعرفة، أو التصديق؛ ويعتقدون أن من عَرَف، أو صدّق؛ فإن إيمانه لا ينتقض بأي عملٍ يعمله، ولو عمل مثل إبليس، أو مزق المصاحف؛ بغضاً لها وللإسلام، أو قتل المسلمين مستحلاً ذلك، أو شتم المرسلين[٦].

فعليك أن تعرف أن الإيمان؛ ليس هو المعرفة فقط، وليس هو التصديق فقط، وليس هو العمل فقط؛ فهذه كلها أقوال مردودة؛ لغة وشرعا[٧].

---

(١) من الآيات التي بيّنت كفر إبليس قول الله تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ" (البقرة:٣٤).

(٢) ستقرأ-بمشيئة الله- في هذا المبحث؛ الآيات الكثيرة الدالة على ذلك؛ ومنها قول الله تعالى:"كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ" (يونس:١٠٣).

(٣) المرجئة: فرقٍ شتى؛ يجتمعون على مخالفة أهل السنة في مسمى الإيمان، وفي الوعيد؛ ويختلفون فيما عدا ذلك. (فمنهم:المرجئة الخالصة؛الجهمية) يرون أن الإيمان هو المعرفة فقط، (ومنهم الكرامية) يرون أن الإيمان الإقرار باللسان فقط؛ (ومرجئة الفقهاء) يرون أن الإيمان هو التصديق والإقرار معاً.[انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري ص١٣٢، والفصل في الملل والنحل٢/٨٩، وأصول الدين عند أبي حنيفة لمحمد الخميس ص ١٧٩].

(٤) الأزارقة: هم أبعد فرق الخوارج عن أهل السنة[انظر:الفصل٢/٨٩].

(٥) انظر:مجموع فتاوى ابن تيمية٧/٣٩٥.

(٦) انظر:الفصل لابن حزم٤/١٥٦، والقصيدة النونية لابن القيم ص ١٦٧، وشرحها لابن عيسى٢/١١٧.

(٧) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٣٣١وص٣٤٢.

تحديد مفهوم الإيمان المنجي:

إن الإيمان المنجي هو الإيمان الشرعي، الذي تدل عليه اللغة؛ وهو: سكون النفس إلى الحق، وقبولها له، ورضاها به، وعملها بمقتضاه[١]، فإن كانت تنفر عن الحق الذي جاء به محمد-ﷺ-وتبغضه، أو ترفضه، ولا تطمئن إليه؛ فليست بنفس مؤمنة[٢]. وبهذا يتبين أن الإيمان شيء فوق ما ذكره أولئك، وأنه ينتقض بالقول[٣]، والفعل[٤]، والاعتقاد[٥]، والشك[٦]؛ كما بيّن الله ذلك في كتابه في آياتٍ كثيرة[٧]، وعلى ذلك جرى القدماء من علماء الحنفية[٨] والمالكية[٩]

---

(١) أنظر: الفصل لابن حزم٤/٣٠، ورسالة البيان عن حقيقة الإيمان؛ضمن رسائل ابن حزم٣/١٤٣، ودرء التعارض لابن تيمية٧/٤١٠.

(٢) فالإيمان لا يكون إيماناً إلا مع الاطمئنان؛ قال الله تعالى: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً(٢٨)[الفجر]، وقال تعالى: إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (النحل:١٠٦)؛ [أنظر:الفصل لابن حزم٣/١١٦].

(٣) الردة بالقول؛ كسب الله تعالى، أو سب الرسول-ﷺ-، أو سب شريعة من شرائع الإسلام.

(٤) الردة بالفعل؛ تشمل فعل الجوارح؛ مثل: من سجد لصنمٍ، أو مزق المصحف استهانة به.
وفعل القلب: مثل: من أبغض الله، أو أبغض الرسول-ﷺ-، أو أبغض شيئاً من شرائع الإسلام، أو كره انتصار المسلمين، أو أحب انتصار الكفار على المسلمين.

(٥) الردة بالاعتقاد؛ مثل: من اعتقد أن لله شريكاً في مُلكه، أو اعتقد كذب نبي من الأنبياء عليهم السلام، أو أن القرآن قد حُرِّف أو زيد فيه أو نقص منه.

(٦) الردة بالشك؛ كمن شك في البعث، أو الحساب، أو الجنة، أو النار؛ أو غيرها مما أخبر الله عنه، أو أخبر عنه رسوله-ﷺ-.

(٧) راجع الكتب الفقهية للمذاهب الأربعة، في أبواب الردة؛ فقد ذكروا أمثلة كثيرة مع أدلتها من القرآن والسنة.

(٨) قال ابن نجيم:" الْحَاصِلُ؛ أن من تكلَّم بكلمة الكفر هازلاً أو لاعباً؛ كفر عند الكل، ولا اعتبار باعتقاده"[البحر الرائق٥/١٣٤].

(٩) انظر: كتب المالكية، ومنها: الذخيرة للقرافي١٢/١٣.

والشافعية[١] والحنابلة[٢]، وبينوا بطلان مذاهب المرجئة كلها؛ والأشاعرة من ضمن المرجئة[٣]، فإن لازم قولهم أن يكون إبليس وفرعون مؤمنَين[٤].

إن المسلمين بعمومهم لا يرضون تعريف المرجئة للإيمان، ويعرفون بفطرتهم أن قول أهل السنة هو الحق، ويقطعون بكفر من سب الله تعالى، أو رسوله-ﷺ-، أو كتابه، أو شيئاً من أحكام دينه. وقد أفاد ابن حزم أن الله قد زيّن الإيمان في قلوب أقوامٍ، فهم في غاية المحبة للإسلام، وأحكامه، ويحسون من أنفسهم النفار العظيم عن كل ما سمعوا منه ما يخالف الشريعة، ويرون أن حرقهم بالنار أخف عليهم من مخالفة الإسلام. قال:"وهذا أمر قد عرفناه من أنفسنا حِسّا، وشاهدناه في ذواتنا يقينا، فلقد بقينا سنين كثيرة لا نعرف الاستدلال ولا وجوهه؛ ونحن ولله الحمد في غاية اليقين بدين الإسلام، وكل ما جاء به محمد-ﷺ-نجد أنفسنا في غاية السكون إليه، وفي غاية النفار عن كل ما يعترض فيه بشك، ولقد كانت تخطر في قلوبنا خطرات سوء في خلال ذلك ينبذها الشيطان، فنكاد لشدة نفارنا عنها أن نسمع خفقان قلوبنا استبشاعا لها"[٥].

الإيمان منجي بنص القرآن:

قد بيّن القرآن بأوضح بيان؛ أن الإيمان هو الذي يحصل به الأمن للإنسان فعلاً، وهو الذي تحصل به السعادة حقاً، والنجاة مضمونة-بإذن الله- لمن حقق الله له الإيمان. فالأمان التام حاصل قطعاً لكل مؤمن؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ الأنعام: ٨٢؛ فـ"هم المصيبون سبيل الرشاد، والسالكون

(١) أنظر: كتب الشافعية، ومنها:حاشية إعانة الطالبين للبكري٤/١٤٩.

(٢) أنظر: كتب الحنابلة في باب الردة، ومنها:المغني١/٢٠٠.

(٣) أنظر: الفصل في الملل والنحل٤/١٥٥.

(٤) أنظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٣٣١.

(٥) أنظر: الفصل في الملل والنحل٤/٣١.

طريق النجاة"[١]، ومن أراد الأمن بلا إيمان؛ فإنه يريد الوصول إلى شيء لم يسلك طريقه!، ولا شك أن الأمن لا يتحقق مع عدم تحقق النجاة.

لم يكتف القرآن بما سبق، بل نص على تحقق النجاة للمؤمنين في آياتٍ كثيرة، فتأمل قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ ۚ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ يونس: ١٠٢ – ١٠٣، فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ۚ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ يونس: ١٠٣؛ يعني "كما فعلنا بالماضين من رسلنا فأنجيناها والمؤمنين معها وأهلكنا أممها، كذلك نفعل بك، يا محمد، وبالمؤمنين، فننجيك وننجي المؤمنين بك، حقًّا علينا غير شك"[٢]، قال السعدي: النجاة في الدنيا والآخرة؛ ليست إلا للرسل وأتباعهم؛ ولهذا قال: {ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟} من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدهما، {كَذَٰلِكَ ۚ حَقًّا عَلَيْنَا} أوجبناه على أنفسنا، {نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} وهذا من دفعه عن المؤمنين[٣]؛ فهذه الآية –كما ترى– أوجب الله فيها على نفسه إنجاء المؤمنين، لإيمانهم.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الحج: ٣٨؛ قال ابن كثير: " يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه، وأنابوا إليه؛ شر الأشرار، وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم"[٤]، وهذا يبين أن الله "يبالغ في دفع ضرر المشركين عن المؤمنين، ويحميهم أشد الحماية من أذاهم"[٥]، قال السعدي:" هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدافع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم كل شر"[٦].

---

(١) تفسير الطبري١١/٥٠٤.

(٢) تفسير الطبري١٥/٢١٦.

(٣) تفسير السعدي ص٣٧٤.

(٤) تفسير ابن كثير٥/٤٣٣.

(٥) روح البيان٦/٢٥.

(٦) تفسير السعدي ص٥٣٩.

إن المتأمل في الآيتين السابقتين يجد أنهما قد أفادتا حصول النجاة للمؤمنين-قبل حصول الشر أو بعده- بمجرد إيمانهم، ولم يُذكر فيهما مع الإيمان قيد.

إن المعنى السابق قد جاء في آياتٍ كثيرة في كتاب الله، ومنها: قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ يونس: ٩٨، وقوله تعالى-عن الجن-:﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ الجن:١٣، وقال سبحانه:﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ التحريم: ٨، وفي قصص إهلاك الأقوام المكذبين للرسل؛ يقول الله تعالى:﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ هود: ٥٨، وقال:﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ هود: ٦٦، وقال:﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ هود: ٩٤.

وبيّن سبحانه أن نجاة المؤمنين بإيمانهم لا تقتصر على النجاة في الدنيا، فقال سبحانه:﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ غافر: ٥١ – ٥٢. وكل هذه الآيات-كما ترى- اقتصرت على ذكر الإيمان لحصول النجاة.

آيات ذكرت أوصافاً أخرى مع الإيمان لحصول النجاة:

المتدبر للقرآن يجد أن هناك آيات ورد فيها وصفٌ آخر مضافاً إلى الإيمان لحصول النجاة؛ فقد أضيف التوكل إلى الإيمان؛ في قول الله تعالى-في بيان طريق النجاة من سلطان الشيطان-:﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ النحل: ٩٩ – ١٠٠.

وآياتٌ أضيفت فيها التقوى؛ ومنها قول الله تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ النمل: ٥٣، وقوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ فصلت: ١٨، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف: ٩٦.

وأضيف الجهاد إلى الإيمان في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الصف: ١٠ – ١١.

إن إضافة هذه الأوصاف إلى الإيمان، لا يعني أنها غير داخلة في اسم الإيمان، بل إن هذا من ذكر الخاص بعد العام مع دخوله في المعنى العام[١]، تأكيداً، وتفصيلاً وتنبيها؛ وهذا كقول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ البقرة: ٩٨، مع أن جبريل، وميكائيل من الملائكة؛ ومثل قول الله تعالى: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ الرحمن: ٦٨، مع أن النخل والرمان فاكهة. وهذا قد بينه علماء اللغة[٢]، وعلماء الشرع[٣].

---

(١) أفاد شيخ الإسلام ابن تيمية أن الإيمان إذا عطف عليه الأعمال؛ كقول الله تعالى:"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"(الكهف: ٣٠)، فإما أن يكون من عطف الخاص على العام، وإما أن يقال: إنه إذا أفرد أحدهما تناول الآخر، وإذا عطف أحدهما على الآخر، فهما صنفان؛ كما في الفقراء والمساكين، والبر والتقوى، والإثم والعدوان. [أنظر:مجموع الفتاوى١٣/٣٩].

(٢) أنظر:تهذيب اللغة؛ مادة(فكه). والإيضاح في علوم البلاغة ص١٨٨. ومحاضرة في أصول الإيمان؛ضمن مجموع فتاوى ابن باز٣/٢٤.

(٣) أنظر: مجموع فتاوى ابن تيمية٧/٦٤٧. ومحاضرة في أصول الإيمان؛ضمن مجموع فتاوى ابن باز٣/٢٤.

النجاة بالإيمان بحسب قوة الإيمان:

يختلف المؤمنون بإيمانهم؛ فمنهم من يزن إيمانه إيمان المؤمنين كلهم[١]، ومنهم دون ذلك، ومنهم كامل الإيمان، ومنهم من ينقص من إيمانه بعض المستحبات، ومنهم من ينقص من إيمانه بعض الواجبات، ومنهم من يرتكب بعض الموبقات، وكل هؤلاء يصدق عليهم اسم الإيمان[٢].

إن النجاة بالإيمان تكون بحسب كمال الإيمان، وقوته؛ فمن كان إيمانه أكمل كانت نجاته أتم، وكلما نقص إيمان المؤمن نقصت نجاته بحسب ما عنده من النقص، وإن كانت النجاة هي مآله؛ قال ابن القيم:" إن الله يدافع عن الذين آمنوا؛ فمن كان مؤمنا فالله يدافع عنه ولا بد، وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه؛ فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مزج له، وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة؛ كما قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة"[٣]، وقال السعدي:" كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر"[٤]. وقال ابن القيم:"العزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، وهو علم وعمل وحال؛ قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ آل عمران:١٣٩، فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان؛ وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المنافقون: ٨، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظ من العلو والعزة ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان؛ علماً وعملاً ظاهراً وباطناً، وكذلك الدفع عن العبد هو بحسب إيمانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾

---

(١) قال عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-: "لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَجَحَ بِهِمْ"[انظر: شعب الإيمان للبيهقي١/١٤٣حديث ٣٥].

(٢) قال الله تعالى:" ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (فاطر:٣٢)، وكلهم مصطفون مؤمنون. [انظر:تفسير الطبري٢٠/٤٧٠، وتفسير ابن أبي حاتم١٠/٣١٨١، ومعالم التنزيل٦/٤٢١، وتفسير ابن كثير٦/٥٤٦].

(٣) بدائع الفوائد٢/٤٧٠، وانظر: تفسير ابن كثير٥/٢٥٦.

(٤) تفسير السعدي ص٥٣٩.

الحج: ٣٨ فإذا ضعف الدفع عنه فهو من نقص إيمانه، وكذلك الكفاية والحسب هي بقدر الإيمان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الأنفال: ٦٤، أي الله حسبك وحسب أتباعك؛ أي كافيك وكافيهم، فكفايته لهم بحسب إتباعهم لرسوله وانقيادهم له وطاعتهم له، فما نقص من الإيمان عاد بنقصان ذلك كله؛ ومذهب أهل السنة والجماعة؛ أن الإيمان يزيد وينقص، وكذلك النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل، فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه، أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه؛ فإنما هي بذنوبه؛ إما بترك واجب، أو فعل محرم؛ وهو من نقص إيمانه. وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ النساء: ١٤١، ويجيب عنه كثير منهم: بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الآخرة، ويجيب آخرون: بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الحجة. والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات؛ وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى؛ فالمؤمن عزيز، غالب، مؤيد، منصور، مكفي، مدفوع عنه بالذات؛ أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان، وواجباته ظاهرا وباطنا[1].

فمن أراد النجاة التامة، فليتم إيمانه، وليعلم كل أحدٍ أن النقص في النجاة حاصل بقدر نقص الإيمان. ولا يلومنّ امرؤ إلا نفسه إن عطب.

عندما تحقق الجن الذين استمعوا إلى النبي -ﷺ- وهو يقرأ القرآن؛ فآمنوا به؛ ذهبوا إلى أقوامهم يدعونهم إلى الإيمان، ويبينون لهم أن النجاة لا تتحقق إلا بالإيمان؛ كما قص الله ذلك بقوله عنهم: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾ ﴾ الأحقاف: ٣١؛ قال الطبري:"يقول: وينقذكم من عذاب موجع إذا أنتم تبتم من ذنوبكم، وأنبتم من كفركم إلى الإيمان بالله وبداعيه"[2]؛ ثم أكدوا لهم أن النجاة لا تتحقق إلا

---

(١) أنظر: إغاثة اللهفان٢/١٨١.

(٢) تفسير الطبري٢٢/١٤١.

بإجابة داعي الله إلى الإيمان- وهو رسول الله، -ﷺ-: فقالوا: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الأحقاف: ٣٢؛ أي:"لا ينجي منه مهرب، ولا يسبق قضاءه سابق"(١)، وأكدوا ذلك بقولهم: ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ الأحقاف:٣٢؛ فهذا "بيان لاستحالة نجاته بواسطة، إثر بيان استحالة نجاته بنفسه"(٢).

فنجاة من عُدِمَ منه الإيمان؛ مستحيلة، مهما وُجد من أسباب النجاة الأخرى. فليتأكد من هذا كل أحدٍ.

---

(١) الكشاف٤/٣١٢.

(٢) البحر المديد٧/١٤٤.

٢- الإخلاص:

لما عِلم إبليس بخلاص المخلصين من سلطانه؛ استثناهم مِن مَن عزم على إغوائهم، كما ذكر الله ذلك عنه بقوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ص: ٨٢ ـ ٨٣ فالإخلاص هو سبيل الخلاص(١).

معنى الإخلاص:

الإخلاص **لغة**: ما صفا من الكدر(٢)، وما زال عنه الشوب(٣)، وإخلاص الشيء: تصفيته من الشوائب(٤)؛ وخلوص اللبن ألا يكون فيه شوب من الفرث والدم(٥)، وهذا الشيء خالصة لك: أي خاص بك(٦)؛ وأَخْلصتُ لله ديني: أي: أَمْحضته"(٧)، والخالص من الألوان: ما صفا ونصع، والإخلاصة: الزُبْدُ إذا خلص من الثفل(٨).

والإخلاص **شرعاً**؛ تصفية العبادة لله تعالى، وجعلها له خاصة؛ فلا تُعمل رياء، ولا سمعة، ولا تزيناً للخلق، ولا غير ذلك من الشوائب. وعبّر العلماء عن هذا المعنى بعبارات متنوعة، والمقصود واحد:

فقيل: إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٧٢.

(٢) أنظر: المصباح المنير؛مادة(خلص).

(٣) انظر: تاج العروس؛ مادة(خلص).

(٤) أنظر: لسان العرب؛ مادة(محض).

(٥) أنظر: التعريفات ص ٢٨.

(٦) أنظر: الصحاح؛ مادة(خلص)، وتهذيب اللغة؛ مادة(خلص).

(٧) انظر: العين؛ مادة(خلص).

(٨) أنظر:المحكم؛ مادة(خلص).

وقال الهروي[١]: تصفية العمل من كل شوب.

ساق كل هذه التعاريف ابن القيم، ثم ذكر أنها متقاربة[٢].

وقال الجنيد[٣]:"الإخلاص: إخراج الخلق من معاملة الله؛ والنفس أول الخلق"[٤].

وقريب منه قول بعضهم:"إفراد القصد إلى الله؛ بإخراج الخلق من معاملة الله، وبترك الحول والقوة"[٥].

وأفاد الرازي أن الإخلاص هو ما يكون فيه الغرض: طلب مرضاة الله تعالى؛ دون أن يمتزج به غرض آخر[٦].

---

(١) الهروي:(٣٩٦-٤٨١هـ):عبد الله بن محمد بن علي بن محمد؛ ينتهي نسبه إلى أبي أيوب الأنصاري - ﷺ- الهروي-نسبة إلى هراة- الحنبلي. إمامٌ، قدوة، أصولي، محدث، مفسر، مؤرخ، متكلم، واعظ، على علم تام بالعربية؛ ولد بقندهار، وتوفي بهراة؛ وكان شديداً على أهل البدع؛ فآذوه، وأرادوا قتله مراراً فسلمه الله منهم.تصانيفه كثيرة، منها: (تفسير القرآن). و(منازل السائرين)، و(ذم الكلام)، و(مناقب الإمام أحمد).[انظر:سير أعلام النبلاء١٨/٥٠٣، وطبقات المفسرين للسيوطي ص٤٦، ومعجم المؤلفين٦/١٣٣].

(٢) أنظر: مدارج السالكين٢/٩٢.

(٣) الجنيد:(٢٢٠تقريباً-٢٩٨هـ)، أبو القاسم: الجنيد بن محمد بن الجنيد؛ الزاهد المشهور؛ الإمام، العلَم، المربي؛ فريد عصره. كان ينطق بالحكمة. كان الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. ضبط قواعد التصوف بأدلة الكتاب والسنة، والصيانة عن العقائد الذميمة؛ فسمي شيخ مذهب التصوف. من كلامه في هذا:" طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، ولم يتفقه؛ لا يقتدى به". [انظر:حلية الأولياء١٠/٢٥٥،سير أعلام النبلاء١٤/٦٦،وفيات الأعيان١/٣٧٣، والأعلام٢/١٤١].

(٤) أنظر: تفسير السلمي٢/١٩٤.

(٥) المرجع السابق.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب١١/٧٠.

بيان القرآن أن الإخلاص يحقق النجاة:

لقد أكد القرآن على أن من ثمرات الإخلاص: النجاة، فمن أراد الخلاص، فعليه بالإخلاص. وهذا المعنى يجده قارئ كتاب الله بأدنى تأمل؛ وذلك لأن القرآن أوضحه أعظم إيضاح؛ وكيف لا يكون ذلك، وما أمر الخلق إلا بهذا، كما بيّن ذلك الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ البينة: ٥، يعني:"مفردين له الطاعة، لا يخلطون طاعتهم ربهم بشرك"[1]، فهذا ما أمر الله به أهل الكتابين من قبلنا، وهذا الأمر نفسه هو الذي أمرنا به سبحانه؛ فقال: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ غافر: ١٤.

العجيب حقاً أن الكفار-وهم كفار- يعلمون أن النجاة تتحقق لهم بالإخلاص، وهذا ليس شيئاً متوقعاً فقط، بل هو أمرٌ واقعٌ أخبر الله عنهم به في قوله: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴾ لقمان: ٣٢، وفي قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥، وفي قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ يونس: ٢٢؛ انظر في هذه الآيات العظيمة؛ تجد أن فيها كلها:(دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ)، عرفوا أنه لا ينجيهم من محنتهم إلا الإخلاص، فعمدوا إليه حين الكربة والشدة.

وإذا كان أمراً عجيباً أن يعرف الكفار أن الإخلاص تتحقق به النجاة في الشدائد، فيخلصون في الشدة لأجل النجاة، ولكنهم يشركون في الرخاء، مع أنهم جربوا فائدة الإخلاص، فالأعجب من ذلك حال بعض من يقرأ القرآن كيف أنه لم يعرف ما عرفه المشركون، ولم يتحقق

---

(١) تفسير الطبري٢٤/٥٤١.

منه الإخلاص في الشدة مثلما تحقق من الجهلة المشركين!! قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:" مشركو زماننا، أغلظ شركاً من الأولين، لأن الأولين يخلصون لله في الشدة، ويشركون في الرخاء؛ ومشركي زماننا: شركهم دائم، في الرخاء والشدة"[١]، فمشركو زماننا –وهم يدَّعون الإسلام- لا يطلبون النجاة في حال الشدة من أهلها–وهو الله تعالى- فهم كحال الذين ذكر الله حالهم بقوله:﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام: ٤٣؛ قال ابن تيمية:"ذم الله سبحانه حزبين: حزباً لا يدعونه في الضراء، ولا يتوبون إليه. وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنه، وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه"[٢].

ما بينه القرآن من أنواع النجاة التي تتحقق بالإخلاص:

من المعلوم أن النجاة أنواعٌ متعددة، والإنسان لا يريد أن يقع في أي نوعٍ من أنواع العطب، فهو يريد النجاة بكل أنواعها، والإنسان عندما يُخَيَّرُ بين أنواع من الطرق ليسلكها؛ فإنه سيختار الطريق الأكثر سلامة، وكل طريق تتحقق له به نجاة أكبر، فإنه سيكون الأحظى بالاختيار؛ هذا شيء يعرفه الناس بفطرتهم. وحينما يتدبر القرآن متدبرٌ فإنه سيجد أنه ذكر أنواعاً من النجاة تحصل للإنسان بالإخلاص، ومن هذه الأنواع:

النجاة من الشيطان:

النجاة من الشيطان للمخلصين، قد أكدها القرآن في غير ما آية؛ بل إن الله تعالى بيّن أن الشيطان قد تحقق من ذلك قبل أن يُخْلَق بنو آدم؛ فقد تحقق الشيطان أنه ليس له عليهم سبيل، وأنهم ناجون منه بسبب حماية الله لهم؛ قال الله تعالى عنه:﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

---

(١) الدرر السنية٢/٢٦.

(٢) مجموع الفتاوى١٤/٣٧١.

أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ص: ٨٢ – ٨٣،(بقراءة الكسر)[١]؛ فالمخلصين بالتوحيد؛ لا يستطيع الشيطان إغواءهم[٢]، فبسبب إخلاصهم" لا يبقى له حيلة، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكرياته، ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، بل مكره محيط به؛ لا بأهل الحق"[٣]. والمتدبر للقرآن يجد أن الله تعالى لم يجعل الأمر مقصوراً على بيان أن إبليس أعلن إياسه من إغوائهم بل إن الله تعالى أكد حمايته لهم من سلطانه؛ ليس في آية واحدة؛ بل في آياتٍ منها؛ قول الله تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ[٤] ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ الحجر: ٣٩ – ٤٢؛ قال الطبري: "يعني به: إلا من أخلص طاعتك، فإنه لا سبيل لي عليه"[٥].

---

(١) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر.[انظر:تحبير التيسير لابن الجزري ص٥٣٣،وص٤١٣. وحجة القراءات ص٣٥٨].

(٢) تفسير مقاتل٣/١٢٥.

(٣) روح البيان٨/٦٥.

(٤) قراءة الكسر هي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر[انظر:حجة القراءات ص٣٥٨].

(٥) تفسير الطبري١٧/١٠٣.

النجاة من السوء والفحشاء:

النجاة من السوء والفحشاء، مطلبٌ شريفٌ لأولي الألباب، وقد بيّن القرآن أن هذه النجاة تحصل للمخلصين بسبب إخلاصهم. لقد بيّن القرآن ذلك في سرده لأحداث قصة يوسف بن يعقوب -عليهما السلام-، قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يوسف: ٢٤، على قراءة الكسر[١]، ومعناها على هذه القراءة: أن يوسف من عبادنا الذين أخلَصوا توحيدنا وعبادتنا، فلم يشركوا بنا شيئًا، ولم يعبدُوا شيئًا غيرنا"[٢] فهو من أهل التوحيد[٣]. "وجملة: {إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ} تعليل لما قبله"[٤]؛ "أي: بسبب إخلاصه، صرفنا عنه السوء؛ وكذلك كل مخلص؛ كما يدل عليه عموم التعليل"[٥]؛ ويالها من ثمرة، لو لم يكن للإخلاص إلا هي لكانت كافية.

النجاة من عذاب الله الدنيوي:

إن حلّ عذاب الله المستأصل بقوم؛ أهلكهم جميعاً إلا المخلصين؛ يتبين للمتأمل في قِصص القوم المعذبين؛ أن المخلِصين نجوا، وهذا شيء قد حث الله عباده على النظر فيه، لكي يروه في ما وقع للمكذبين؛ قال الله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الصافات: ٧٣ - ٧٤[بقراءةالكسر[٦]]. فأهل الإخلاص"نجوا من العذاب بالتوحيد"[٧]، وهذا "يعني أنهم نجوا مما أُهلك به كفار الأمم الماضية"[٨].

---

(١) قراءة الكسر هي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر[انظر:حجة القراءت ص٣٥٨].

(٢) تفسير الطبري١٦/٥٠

(٣) انظر:بحر العلوم٢/١٨٨.

(٤) فتح القدير٣/٢٦.

(٥) تفسير السعدي ص ٢٠٢.

(٦) قراءة الكسر هي قراءة ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر[انظر:حجة القراءت ص٣٥٨].

(٧) تفسير مقاتل٣/١٠١.وانظر: معالم التنزيل٧/٤٣. وتفسير الخازن٤/٢٠.

(٨) روح البيان٧/٣٦٣.

النجاة من عذاب الله الأخروي:

التهديد بعذاب الآخرة قائمٌ؛ وهو حاصل لكل أحدٍ إلا المخلصين، أما غيرهم فسيُحْضَرون للعذاب إحضارا؛ بين الله ذلك بقوله عن قوم إلياس[١]-عليه السلام-:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ الصافات: ١٢٧ – ١٢٨، [بقراءةالكسر[٢]]، فهؤلاء المخلِصون"غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من اللّه جزيل الثواب"[٣]، ولو تأتى الإخلاص منهم بعد أعظم الجرائم- وهو النفاق- فإن الإخلاص إذا تحقق في توبة أصحابه؛ فإنهم ينجون من عذاب الدرك الأسفل من النار؛ الذي يستحقونه لو استمروا على نفاقهم وعدم إخلاصهم؛ بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ النساء: ١٤٥ – ١٤٦؛ {وأخلصوا دينهم لله}؛ أي:"أخلصوا طاعتَهم وأعمالهم التي يعملونها لله، فأرادوه بها، ولم يعملوها رئاءَ الناس"[٤].

النجاة من شر يوم القيامة:

بالإخلاص تتحقق النجاة من شر ذلك اليوم-العظيم الأهوال- كما بيّن الله ذلك بقوله عن الذين أخلصوا في إرادتهم وجهه؛ فقال سبحانه عنهم: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ ﴾ الإنسان: ٩ – ١١؛ وهم لم يقولوا ذلك بألسنتهم، وإنما علمه الله من قلوبهم؛ قاله مجاهد[٥]، وسعيد بن

---

(١) قوم إلياس-عليه السلام-: هم أهل بعلبك؛ حيث إن الله تعالى أرسله إليهم. وقد ذكر النسابون أن جد إلياس الرابع هو هارون-عليه السلام- وعلى هذا فزمنهم كان بعد موسى-عليه السلام-[انظر:تاريخ دمشق٩/٢٠٥، والبداية والنهاية١/٣٩٣، وتاريخ ابن خلدون٢/١١٢].

(٢) قراءة الكسر هي قراءة ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر[انظر:حجة القراءت ص٣٥٨].

(٣) تفسير السعدي ص٧٠٧.

(٤) تفسير الطبري٩/٣٤١.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره٣/٣٧٥، والطبري في تفسيره٢٤/٩٨.

جبير[١]؛ فإخلاصهم إخلاصٌ حقيقيٌ، نابع من أعماق قلوبهم، لا يريدون أي جزاءٍ على أعمالهم من غير الله، ولا حتى الدعاء، فهم لا يريدون ممن أطعموه أن يدعو لهم جزاء لإطعامهم إياهم؛ وذلك لكمال إخلاصهم، قال ابن تيمية:" من طلب من الفقراء الدعاء أو الثناء؛ خرج من هذه الآية"[٢]، وكانت عائشة- رضي الله عنها- إذا أهدت هدية؛ أمرت الخادم أن ينظر ما يدعون لها به؛ فتدعوا لهم بمثل دعوتهم؛ وتقول:"نرد عليهم مثل ما قالوا، ويبقى أجرنا لنا"[٣]، قال ابن تيمية: "قال بعض السلف: إذا أعطيت المسكين فقال: بارك الله عليك. فقل:بارك الله عليك؛ أراد أنه إذا أثابك بالدعاء فادع له بمثل ذلك الدعاء حتى لا تكون اعتضت منه شيئا"[٤]، وقال:"العامل للخير؛ مأمور بأن يفعل ذلك خالصا لله، يبتغي به وجه الله، لا يطلب به من المخلوق جزاء، ولا دعاء، ولا غيره؛ لا من نبي، ولا رجل صالح، ولا من الملائكة، فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين" ثم ذكر حديث عائشة السابق[٥]. وأبو بكر -ﷺ- أنفق ماله " أنفقه يبتغي به وجه الله؛ لا يطلب الجزاء من مخلوق؛ لا نبي ولا غيره، لا بدعاء، ولا شفاعة"[٦].

لقد حققوا في عملهم كمال الإخلاص؛ لم يريدوا من غير الله شيئاً؛ كل مرادهم وجه الله؛ فكانت نتيجة إخلاصهم أن وقاهم الله شرّ يوم القيامة؛ أي:" دفع الله عنهم ما كانوا في الدنيا يحذرون من شر اليوم العبوس القمطرير"[٧]، كما بيّن الله ذلك في الآية السابقة بقوله:﴿ فَوَقَىٰهُمُ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره٢٤/٩٨.

(٢) مجموع الفتاوى١١/١١١.

(٣) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ٢٧٠، حديث٣٠٣؛ قال الألباني: صحيح[انظر: صحيح الكلم الطيب١٨٥]. وانظر: الوابل الصيب لابن القيم ص ٢٠٦.

(٤) مجموع الفتاوى١١/١١٢.

(٥) المرجع السابق١/١٨٨.

(٦) المرجع السابق١١/١١٢.

(٧) تفسير الطبري٢٤/١٠١.

﴿ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ الإنسان: ١١ ـ ١٢.

٣- التقوى

التقوى تحصل بها الوقاية؛ وهي النجاة من المساوئ قبل حصولها، كما قال عمر بن الخطاب-ﷺ-:"من اتقى وُقِي"(١)، وقال:"من اتقى الله وقاه"(٢)، وقد تلقت الأمة هاتين العبارتين بالقبول، فصارتا من العبارات الدارجة على ألسنة الكثيرين.

معنى التقوى:

"التقوى أصلها وَقَى، فهي فَعْلى من وَقيت"(٣). وتَوَقَّى، واتَّقى؛ بمعنى. وتوَقَّيْتُ واتَّقَيْتُ الشيء:حَذِرْتُه(٤)، "واتقى فلان بكذا: إذا جعله وقاية لنفسه"(٥)، "والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف"(٦)، وعلى هذا فالتقوى لغة: الحذر؛ بأن تتجنب كل شيء يدنيك مما تحذره، وأن تفعل كل شيء يبعدك عنه(٧).

وبناء على كلام أهل اللغة السابق؛ يمكن أن يقال في تعريف التقوى اصطلاحاً: إنها: **الحذر من مساخط الله؛ بتجنبها، والابتعاد عن ما يوقع فيها، وفعل الأمور التي تصُد عنها**(٨). فهذا ربما يكون أحسن من تعريفها بأنها **أن تجعل بينك وبين غضب الله وعذابه**

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ص ٤٠،أثر رقم ٩٤

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق٤٤/٣٥٦.

(٣) المحكم، مادة(عوى).

(٤) لسان العرب؛مادة(وقي).

(٥) المفردات؛مادة(وقى).

(٦) المرجع السابق.

(٧) انظر: جامع العلوم والحكم ص١٥٨.

(٨) هذا تعريف مستنبط مما ذكرَتْه معاجمُ اللغة عند تحليل لفظ التقوى، وأشار إلى نحوه ابن تيمية؛ حيث أفاد أنه لابد في التقوى من ترك الشرك، وترك اتباع الهوى والشهوات، ولا بد أن يفعل المتقي أمورا كثيرة تصده عن ذلك[انظر:مجموع الفتاوى٢٠/١٣٦]، وقال: ربما غلب على بعض الناس حال قلبه، بحيث لا يمكنه صرفه عما توجه إليه من الشر، فيبقى ما يخرج منه مثل السهم الخارج من القوس؛ وهذه الغلبة إنما تقع غالباً بسبب التقصير في الأعمال المشروعة التي تحفظ حال القلب. [انظر:الاقتضاء٢/٢٢٠].

وعقوبته؛ وقاية، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه[١]، لأن التعريف الأول فيه معنى التقوى، والثاني فيه معنى الوقاية[٢].

والتقوى درجات؛ أولها: اتقاء الشرك والكفر، ثم اتقاء البدعة والمعصية، ثم اتقاء الشبهات، ثم اتقاء فضول المباحات التي تشغل القلب عن الله؛ أو تضعف من سيره إليه[٣]. وكلما ترقى الإنسان في سُلّم هذه الدرجات، كلما كان أتقى لله. المتقي حقاً؛ من يطيع الله فلا يعصيه، ويذكره فلا ينساه، ويشكره فلا يكفره[٤]، ويعمل بطاعة الله؛ على نور من الله؛ يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله؛ على نور من الله؛ يخاف عقاب الله[٥].

بيان القرآن أن التقوى تحقق النجاة:

بيّن القرآن أن التقوى تتحقق بها النجاة، وأنه كلما كمَّل الإنسان التقوى، كلما كمُلت نجاته، وتنقص نجاته بمقدار نقص تقواه. إن الملاحظ أن القرآن لم يتقصر على بيان نجاة المتقي في الدنيا، أو ذكر نجاته في الآخرة، بل قد دلت الآيات على حصول النجاتين له: دنيا، وآخرة.

النجاة من عذاب الآخرة:

إذا كانت النجاة في الآخرة، والنجاة من النار خصوصاً؛ هي أول ما يرد إلى ذهن المؤمن عند ذكر النجاة، فقد بيّن الله حصول ذلك بالتقوى، وذلك في قول الله تعالى-وهو يصف جهنم-﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ

---

(١) أنظر: جامع العلوم والحكم ص١٥٨.

(٢) ربما يظن البعض أن التقوى فيها ترك المحذور فقط، دون فعل المأمور. وهذا ظن خاطئ، فإن المتقي كتارك الأطعمة المضرة، لا يكفيه ذلك لصحة جسمه، بل لابد من تناول الأطعمة النافعة، وهو إن خلّط في أطعمته فسدت صحته، وإن ترك تناول النافع والضار هلك، ولا تحصل له السلامة حقاً إلا بتناول النافع دون الضار.[انظر:مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/١٣٦].

(٣) انظر: الرسالة القشيرية ص١٠٥.

(٤) انظر: تاريخ دمشق٤٦/٤٢٠.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء٤/٦٠١.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ مريم: ٧١ ـ ٧٢، قال قتادة:"إن الناس وردوا جهنم وهي سوداء مظلمة، فأما المؤمنون فأضاءت لهم حسناتهم، فأنجوا منها؛ وأما الكفار فأوبقتهم أعمالهم، واحتبسوا بذنوبهم"(١). وبحسب كمال تقواهم تكون نجاتهم، قال ابن حزم:"ينجى الله أولياءه من حرّها -وهم الذين لا كبائر لهم، أو لهم كبائر تابوا عنها؛ ورجحت حسناتهم بكبائرهم، أو تساوت كبائرهم وسيئاتهم بحسناتهم- وأنه تعالى يمحص من رجحت كبائره وسيئاته، ثم يخرجهم عنها إلى الجنة بإيمانهم، ويمحق الكفار بتخليدهم في النار"(٢)، فالذين نقصوا من التقوى الواجبة معرضين لدخول النار لنقص تقواهم، لكنهم ينجون في آخر أمرهم؛ بحسب تقواهم؛ وقد بيّن النبي-ﷺ-ذلك في حديث أبي هريرة، وحذيفة(٣)-رضي الله عنهما- حين بيّن-ﷺ-أن أول الناس يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ؛ تَجْرِى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ؛ حَتَّى يَجِىءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا(٤)، وفي حديث آخر بيّن النبي-ﷺ-شيئاً من ذلك؛ حيث قال:"ويضرب الصراط بين ظهري جهنم؛ فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل؛ ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب(٥) مثل شوك السعدان؛ هل رأيتم السعدان؟ قالوا: نعم؛ يا رسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله؛ تخطف الناس بأعمالهم؛ فمنهم الموبق بعمله، أو الموثق بعمله، ومنهم المخردل، أو المجازى، أو نحوه، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٨/٢٣٨.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل٤/٤٢.

(٣) حذيفة بن اليمان:(٠٠٠ - ٣٦ هـ):حذيفة بن حسل بن جابر العبسي، أبو عبد الله، صحابي، من الولاة الشجعان الفاتحين. واليمان لقب حسل؛ كان أبوه قد أصاب دما فهرب إلى المدينة فحالف بني عبد الأشهل؛ وهم من أهل اليمن؛ فسماه قومه اليمان لذلك؛ كان صاحب سر النبي -ﷺ- في المنافقين، لم يعلمهم أحد غيره. ولاه عمر-ﷺ- على المدائن؛ وفيها توفي؛ وكانت ولادته بالمدينة.[انظر:الإصابة٢/٤٤، والأعلام٢/١٧١].

(٤) أخرجه مسلم ١/١٨٦ حديث١٩٥؛ كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٥) الكلاليب؛ جمع؛ مفرده: كلُّوب، وكلّاب: وهو حَديدة مُعْوَجَّة الرأس؛ وتطلق على الحديدةٌ العَقْفاءُ التي تكونُ في طَرَفِ الرَّحْل؛ تُعَلَّق فيها المزادُ. [انظر:لسان العرب؛ مادة(كلب)].

العباد؛ وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار؛ أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا؛ ممن أراد الله أن يرحمه؛ ممن يشهد أن لا إله إلا الله؛ فيعرفونهم في النار بأثر السجود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود؛ حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا(١)، فيصب عليهم ماء الحياة؛ فينبتون تحته؛ كما تنبت الحبة في حميل السيل(٢)"(٣).

وقد تضافرت الآيات القرآنية مع الآية السابقة على بيان نجاة المتقي من النار؛ مع أنه كان يكفي لبيان ذلك آية واحدة، لكن تعدد الآيات يأتي لتأكيد هذه الحقيقة. ومن الآيات التي بينت نجاة المتقين من النار؛ قول الله تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ الليل: ١٤ ـ ١٧، قال الطبري: "يقول: وسيوقَّى صِليَّ النار التي تلظَّى: التقيُّ"(٤).

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ﴾ الزمر: ١٩ ـ ٢٠، قال الشوكاني: "لما ذكر سبحانه أن لأهل الشقاوة ظللا من فوقهم النار ومن تحتهم ظلل؛ استدرك عنهم من كان من أهل السعادة"(٥). وقريب من هذه الآية قوله تعالى-وهو يصف حال الكفار-: ﴿ ثُمَّ

(١) " المحْشُ: احتراقُ الجلد، وظهورُ العظم"[لسان العرب؛مادة(محش)].

(٢) حميل السيل: ما يحمله السيل من من طين أو غُثَاء وغيره؛ فَعِيل بمعنى مفعول، فإذا اتَّفَقَت فيه حِبَّة واسْتَقَرّت على شَطّ مَجْرَى السَّيْل فإنها تَنْبُت في يوم وليلة؛ فشُبِّه بها سُرْعة عَوْد أبْدَانِهم وأجْسَامِهم إليهم بَعْدَ إحْراق النَّار لها".[النهاية في غريب الأثر؛ مادة(حمل)].

(٣) أخرجه البخاري٩/١٥٧ حديث ٧٤٣٧؛ كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة}.

(٤) تفسير الطبري٢٤/٤٧٨.

(٥) فتح القدير٤/٦٤٩.

مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ آل عمران: ١٩٧ ـ ١٩٨.

وإذا جاء ذكر النجاة من النار، فإنه يرد على الذهن أحوال القيامة وأهوالها الأخرى، فإنها مفزعة للقلوب، فهل ينجو المتقي من تلك الأهوال، وتأتي الإجابة في القرآن الكريم عند ذكر أحد أهوال القيامة، وهي سواد الوجوه؛ يقول الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الزمر: ٦٠ ـ ٦١، فهنا جاء تخصيص المتقين من سواد الوجوه، والنجاة من كل سوء على وجه العموم في هذه الآية العظيمة، قال ابن كثير:" قوله: { وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ } أي: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، {لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ } أي: يوم القيامة، {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزحون عن كل شر، مؤملون كل خير"(١)، قال السعدي:"وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند كل هول وشدة"(٢). ونجاتهم بسلامتهم من النار، ودخولهم الجنة؛ هي المفاز، المذكور في قول الله تعالى:﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ النبأ: ٣١، قال السمرقندي:"يعني نجاة من النار إلى الجنة"(٣)، وقال الخازن: "أي: فوزا؛ أي: نجاة من العذاب"(٤).

النجاة من عذاب الدنيا:

عذاب الله أليم شديد، فما يعذِّب به المكذبين مهول مفزع، لا ينتبه لشدته الكافرون إلا بعد وقوعه، ولكن أولي الألباب يخافون منه قبل ذلك. وقد بيّن الله تعالى أنه ينجي المتقين من

(١) تفسير ابن كثير٧/١١١.

(٢) تفسير السعدي ص٧٢٨.

(٣) بحر العلوم٣/٥١٦.

(٤) تفسير الخازن٤/ ٣٨٨.

عذابه الدنيوي، بيّن الله ذلك في قصص أنبيائه المكَذبين، حيث أهلك أعداءهم، وأنجى المتقين، ومن الآيات التي ذكر الله فيها هذه الحقيقة: ما ذكره الله في قصة ثمود[١]، حيث بيّن أنه أهلكهم، ثم قال: ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ النمل: ٥٣، قال الخازن:"أي يتقون الشرك والأعمال الخبيثة؛ وهم صالح ومن آمن معه من قومه"[٢]، وقال في قصتهم- أيضاً-:﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ فصلت: ١٧ ـ ١٨، قال ابن كثير:" لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح -عليه السلام- بإيمانهم، وتقواهم لله-عز وجل-"[٣].

النجاة من عموم المضائق:

كل ضيق عند الله مخرجه، والله تعالى قد وعد المتقين بالنجاة من المضائق.

جاء ذلك في ألفاظ متنوعة؛ فقد جاء بلفظ الفلاح: أي النجاة من كل مكروه، والظفر بكل مطلوب، ومن الآيات التي ذكرت ذلك قول الله تعالى:﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران: ١٣٠، قال ابن إسحاق:" لعلكم أن تنجوا مما حذركم من عذابه، وتدركوا ما رغبكم فيه من ثوابه"[٤].

---

(١) ثمود: هم قوم صالح؛ وكانوا عرباً، سكنوا وادي القرى؛ قُرب تبوك؛ ويسمى الآن:(وادي العلا)، وبلادهم تسمى الآن:(مدائن صالح)؛ شمال المدينة النبوية. قال البكري-المتوفى في١٣١٠هـ: "وبيوتهم إلى وقتنا هذا مبنيّة منحوتة في الجبال، ورممهم باقية، وآثارهم بادية، ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا هذا، وهذا يدلّ على أنّ أجسامهم كانت كأجسامنا لا كأجسام عاد الأولى.[أنظر: المسالك والممالك للبكري١/٩٨، ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية لعاتق البلادي ص٣٣١].

(٢) تفسير الخازن٤/٨٧.

(٣) تفسير ابن كثير٧/١٧٠.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره٧/٢٠٥.

وجاء بلفظ المخرج؛ وذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ ﴾ الطلاق: ٢، قال الرَّبِيعِ بْن خُثَيْمٍ[١]:"(مَخْرَجًا) من كل أمر ضاق على الناس"[٢]، وقال قتادة: "مخرجا من شبهات الدنيا، ومن الكرب عند الموت، وفي مواقف يوم القيامة"[٣]، فـ"من لم يركب طريق التقوى؛ فقد أخطأ في طلب النجاة"[٤].

وجاء بلفظ الفرقان؛ وذلك في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ الأنفال: ٢٩، فقد فسر كثير من المفسرين الفرقان بالنجاة[٥]، قال الشوكاني:"ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة؛ قوله تعالى: {وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا}"[٦]. وأفاد الشنقيطي أن تفسيرها بالنجاة؛ رَاجِعٌ فِي الْمَعْنَى إِلَى تفسيرها بالمخرج؛ لأن من جعل الله له مخرجاً؛ أنجاه ونصره[٧]، وشيخ المفسرين-ابن جرير الطبري- ذكر الأقوال في تفسيرها؛ فقال: "قال بعضهم:مخرجًا، وقال بعضهم:نجاة، وقال بعضهم:فصلاً"، ثم قال:"وكل ذلك متقارب المعنى، وإن اختلف العبارات عنها"[٨].

---

(١) الرَّبِيعِ بْن خُثَيْمٍ(...-٦٣هـ) بن عائذٍ، الثوري، الكوفي، أبو يزيد. أحد الأعلام. تابعي أدرك زمن النبي-ﷺ-، عالمٌ، زاهدٌ، ورعٌ، عابدٌ، قليل الرواية إلا أنه كبير الشأن. وكان من عقلاء الرجال. وكان يحفظ لسانه؛ لم يعرف عنه كلمة تُعاب، بل ذكروا أنه لا يتكلم إلا بكلمة تُرفع. كان ابن مسعود-رضي الله عنه- يخصه بالحديث، ويقول له إذا رآه: "وبشر المخبتين"،و"إذا رأيتك ذكرت المخبتين"، ويقول له: "لو رآك رسول الله-ﷺ-لأحبك".[انظر: مشاهير علماء الأمصار١/ ١٦٠، وسير أعلام النبلاء٤/ ٢٥٨].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبه في المصنف١٤/٣٧.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء٢/٣٤٠.

(٤) انظر: تفسير السلمي٢/٣٣٣.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٤٨٩: عن ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدي.

(٦) فتح القدير٢/٤٤٠.

(٧) أضواء البيان٢/٥٢.

(٨) تفسير الطبري١٣/٤٨٨.

وجاء بلفظ التيسير؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ الطلاق: ٤؛ قال الخازن:" يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة"(١)، وأفاد السعدي أن معناها: ييسر الله له الأمور، ويسهل عليه كل عسير(٢)، وقال ابن عاشور:"يجعل الله له يسرا فيما لحقه من عسر"(٣).

وبهذا يتبين للمسلم ما أوضحه القرآن؛ من أن التقوى طريق النجاة؛ فـ"من لم يركب طريق التقوى فقد أخطأ في طلب النجاة"(٤)، وكل من اجتهد في طلب النجاة من غير أن يلزم التقوى؛ فإنه يتعب نفسه فيما نتيجته الخسارة المؤكدة. كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- لرجل:"إنك لم تتق الله؛ فلا أجد لك مخرجًا"(٥). ومن عرف فليلزم.

---

(١) تفسير الخازن٤/٣٠٨.وانظر: فتح القدير٥/٣٣٩.

(٢) انظر: تفسير السعدي ص٨٧٠

(٣) التحرير والتنوير٢٨/٢٩٠.

(٤) انظر: تفسير السلمي٢/٣٣٣.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره٢٣/٤٣٣.

٤- الشكر:

من تأمل ما قصه الله تعالى عن قوم لوط-عليه السلام- علِم أن الشكر[١] من الأسباب التي تحصل بها النجاة، فقد جاء ذلك صريحاً في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾ القمر: ٣٤ – ٣٥؛ فظهر في الآية أن كل من شكر الله فإن الله تعالى ينجيه؛ وذلك في قوله فيها: {كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ}؛ قال الطبري:" يقول: وكما أثبنا لوطًا وآله، وأنعمنا عليهم، فأنجيناهم من عذابنا بطاعتهم إيانا؛ كذلك نثيب من شكرنا على نعمتنا عليه"[٢].

إن الشكر سبب للنجاة في الدنيا؛ وسببٌ للنجاة في الآخرة؛ هذا ما استنبطه بعض المفسرين من قول الله-سبحانه- في الآية: {كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ}؛ قال السمرقندي: "يقال في قوله: {مَن شَكَرَ}؛ يعني من وحد الله تعالى لم يعذبه في الآخرة مع المشركين؛ فكما أنجاهم في الدنيا؛ ينجيهم في الآخرة، ولا يجعلهم مع المشركين"[٣]، وأفاد الرازي أن في قوله: {كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ} وجهان:

أحدهما؛ ظاهر، وعليه أكثر المفسرين، وهو أنه كما أنجينا آل لوطٍ-عليه السلام- من عذاب الدنيا؛ كذلك ننجي كل من شكر؛ بأن نصونه عن الإهلاكات العامة المطبقة.

---

(١) قال ابن القيم: أصل الشكر:الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة. فمن لم يعرف النعمة -بل كان جاهلا بها-؛ لم يشكرها. ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها؛ لم يشكرها أيضا. ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها؛ فقد كفرها. ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضى به وعنه؛ لم يشكرها أيضا. ومن عرفها وعرف المنعم بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محابه وطاعته؛ فهذا هو الشاكر لها. فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له.[طريق الهجرتين ص١٦٨، وانظر: الفروق للعسكري١/٣٠١].

(٢) تفسير الطبري٢٢/٥٩٦.

(٣) بحر العلوم٣/٣٥٤.

ثانيهما؛ وهو الأصح، أن هذا وعدٌ لهم بالنجاة في الآخرة؛ كأنه قال: كما نجيناهم في الدنيا، فكذلك ينجي الله الشاكرين من عذاب النار. قال:"والذي يؤيد هذا أن النجاة من الإهلاكات في الدنيا ليس بلازم، ومن عذاب الله في الآخرة لازم"(١).

وبهذا يتبين أن القرآن قد بيّن أن الشكر سببٌ للنجاة في الدنيا والآخرة.

(١) مفاتيح الغيب٢٩/٥٣. وانظر: غرائب القرآن٦/٢٢١.

٥- طاعة الله ورسوله -ﷺ-:

الطاعة اسم لما مصدره: الإطاعة؛ وهي الانقياد. والطواعية اسم لما مصدره: المطَاوعَة[١]، وهي الموافقة[٢]؛ وكلاهما لا يكون إلا عن إجابة أمر؛ فمن مضى لأمر أحد؛ فقد أطاعه، وإذا وافقه فقد طاوعه"[٣]. والتَطَوُّع: ما تبرعت به مما لا يلزمك[٤].

والطاعة شرعاً: "موافقة الأمر وامتثاله؛ على الوجه الذي أُمِر به"[٥].

والفرق بين التقوى والطاعة؛ أن الأصل في التقوى: كف النفس عن المنهي؛ ويدخل فعل الأمر تبعاً. والطاعة بالعكس: الانقياد بفعل المأمور، ويدخل ترك المنهي تبعاً[٦].

بيان القرآن أن الطاعة تحقق النجاة:

طاعة الله ورسوله-ﷺ-؛ من أجَلِّ الأمور وأعظمها، وبها تتحقق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة. وإذا كان أعظم أجزاء السعادة: حصول النجاة؛ فإن النجاة تحصل بطاعة الله ورسوله-ﷺ- بأعظم صوَرِها، وكلما قدّم الإنسان طاعة ربه على طاعة مَنْ سواه، وعَظُمت طاعته لربه، كلما عَظُمَ نصيبه من النجاة. بيّن القرآن هذا بآياتٍ عديدة، يجدها تالي القرآن المتدبر لمعانيه. فلينتبه تالي القرآن للآيات الآتية:

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ آل عمران: ١٧٢

---

(١) انظر: كتاب العين؛مادة(طوع).

(٢) انظر: تهذيب اللغة؛ مادة(طوع).

(٣) انظر: المرجع السابق.

(٤) انظر: كتاب العين؛مادة(طوع).

(٥) الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص٩٨. وانظر:المسودة لآل تيمية١/٥٧٦، وشرح مختصر الروضة للطوفي١/٢٢٢، وشرح الكوكب المنير لابن النجار١/٣٨٥.

(٦) انظر:الفروق لأبي هلال العسكري١/١٣٧.ومنهاج السنة النبوية٦/٣٠٣.

- ١٧٤، (لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ)؛ فهم في غزوة حمراء الأسد(١)، قد أطاعوا أمر الله وأمر رسوله-ﷺ- رغم شدة الحال، فنجوا بسببها من كل سوء؛ لما أطاعوا الله في الشدة، نجاهم فـ(لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ) قال ابن عباس -رضي الله عنهما-:"لم يؤذهم أحد"(٢)، وقال الطبري:"لم ينلهم مكروه من عدوّهم، ولا أذى"(٣)، وقال الثعلبي:"لم يصبهم قتل ولا جرح، ولا ينالهم سوء ولا أذى ولا مكروه، (وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ): في طاعة اللّه وطاعة رسوله-ﷺ-"(٤). وهكذا كانت الطاعة الكاملة سبباً في النجاة التامة. إن هذا الواقع الذي عاشه صحابة رسول الله-ﷺ-تحقيق لما وعد الله به كل من أطاعه، فقد وعد الله الطائعين بالفوز؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ النور: ٥٢؛ أي:الناجون(٥)، قال النحاس:"الفوز في اللغة: النجاة"(٦)، فهم"الناجون في دنياهم وأخراهم. وعد الله ولن يخلف الله وعده. وهم للفوز

---

(١) حمراء الأسد: موقعٌ قُرب المدينة النبوية؛ حصلت فيه غزوة سميت باسمه؛ وكانت يوم الأحد؛ في اليوم الثامن، من الشهر العاشر، على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة، بعد أحدٍ مباشرة؛ لما دفن المسلمون قتلاهم من أحد، وكانت الجراح فيهم فاشية، أمر النبي-ﷺ-بلالاً-رضي الله عنه-أن ينادي في الناس:إن رسول الله-ﷺ-يأمركم بطلب عدوكم، وأن لا يخرج إلا من شهد القتال بالأمس(يعني أُحد). فخرجوا رغم ما بهم-ﷺ-استجابة لأمر رسول الله-ﷺ- إلى حمراء الأسد؛ لأن الكفار تجمعوا بالقرب منه؛ بعد انتصارهم في أُحد؛ للكرة على المسلمين واستئصالهم، لكن الرسول-ﷺ-أمر المسلمين بالذهاب لملاقاة الكفار في ذلك الموقع؛ فسميت غزوة حمراء الأسد، رغم أنه لم يحدث فيها قتال، لأن الكفار لما رأوا مجيء المسلمين إليهم أصابهم رعب عظيم، فهربوا، وأقام المسلمون فيها خمس ليالٍ؛ يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار، فذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه، فلما رأى الكفار زاد رعبهم، فكبتهم الله،، ومضى رسول الله-ﷺ-بأصحابه حتى عسكر بحمراء الأسد، وانصرف رسول الله-ﷺ-، إلى المدينة فدخلها يوم الجمعة.[انظر: مغازي الواقدي١/٣٣٤، ونهاية الأرب١٧/٩١].

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٣/٨١٩.

(٣) تفسير الطبري٧/٤١٤.

(٤) الكشف والبيان٣/٢١٤. وانظر: معالم التنزيل٢/١٣٩.

(٥) أنظر: تفسير السمعاني٣/٥٤٣، ومعالم التنزيل٦/٥٦.

(٦) معاني القرآن٤/٥٤٨.

أهل، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم. فالطاعة لله ورسوله تقتضي السير على النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة، وهو بطبيعته يؤدي إلى الفوز في الدنيا والآخرة"[١]. إن الله تعالى قد ذكر في هذه الآية: الخشية والتقوى مع الطاعة؛ وذلك لا يعني أن الطاعة لا تحقق بها النجاة، فهي حقائق متداخلة بكل واحدٍ منها يتحقق الآخر، وكل واحدٍ منها حقيق بأن تحصل به النجاة. وقد أتى في القرآن إفراد الطاعة بالذكر مع الوعد بالفوز، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب: ٧١، قال مقاتل:"يقول: نجا بالخير وأصاب منه نصيبا وافرا"[٢]، وقال أبو عبد الرحمن السلمي:"أي نجا نجاة بينة"[٣]. وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ النساء: ١٣، قال السمرقندي:" يعني ذلك الثواب: هو النجاة الوافرة"[٤]، وقال إسماعيل حقي:"{ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ } أي: النجاة الوافرة يوم القيامة، والظفر الذي لا ظفر وراءه"[٥].

وبهذه الآيات العظيمة؛ يكون القرآن قد أوضح-بأعظم بيان- سبباً من أسباب النجاة الصحيحة، الذي ينبغي لكل إنسان أن يسعى لتحقيقه لنفسه، قبل أن يأتيه العذاب والنقمة والهلاك؛ فيندم أشد ندم، ولات ساعة مندم؛ ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ الزمر: ٥٨ ــ ٥٩.

---

(١) في ظلال القرآن٤/٢٥٢٧.

(٢) تفسير مقاتل٣/٥٧.

(٣) تفسير السلمي٢/١٥١.

(٤) بحر العلوم١/٣١٣.

(٥) روح البيان٢/١٤٠، وانظر: تفسير السعدي ص١٧٠.

٦- الاستجابة لداعي حكم الله ورسوله ﷺ:

من طبيعة الإنسان أنه يريد الظفر في الخصومات في القضايا والحقوق، ويريد أن يظهر لكل أحدٍ أنه صاحب الحق، ويريد أن يُحْكَم له بما يُطالب به؛ ليتبيّن للناس نزاهته، وليحصل على ما أراد بما يصدر من حُكْمٍ من القاضي.

الظفر بما فيه الخصومة، هو المطلوب عند كثيرٍ من الناس؛ ولو عن طريق رشوة الحاكم، أو زيغه، أو ظلمه، أو كراهيته للطرف الآخر، فالمهم أن يُحْكَم له. هذا هو السائد عند أكثر الناس، أما المؤمنون حقاً؛ فالأمر غير ذلك، فالمطلوب عندهم هو أن يُحق الحقُ بالحق؛ فإذا حُكِم بغير الحق فهي خسارة عظيمة، وإن كان حُكِم له، وإذا أحق الحق فهي السلامة المحققة، وإن حُكِم عليه، فالمهم عنده أن يُحكم بشرع الله، فهو الخير العظيم حقاً.

إن ضعاف الإيمان يسعون إلى الظفر بما يريدونه مما في أيدي الآخرين، ولو كان ذلك عن طريق التحاكم إلى غير شرع الله، فشرع الله لا يريدونه أصلاً إلا لتحقيق أغراضهم، فإن كان فيه تحقيقها؛ أتوا إليه مذعنين، وإلا فنصيبه منهم الإعراض والصدود. هؤلاء هم الذين قال الله في وصفهم: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ النور: ٤٨ – ٤٩، فهم "يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم، أوشكُّوا، فأما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض؛ بل سارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا، وفي ذلك دلالة على أنه ليس بهم اتباع الحق وإنما يريدون النفع المعجل"[(١)]، فإذعان أحدِهم ليس عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه؛ ولهذا لما خالف الحق قصده، عدل عنه إلى غيره[(٢)]؛ وفي التحاكم إلى غير شرع الله الهلاك.

إن النجاة في الدنيا والآخرة تتحقق بالتحاكم إلى شرع الله، والرضا بذلك، والاطمئنان إليه، وهذا هو فعل المؤمنين الذي لا يمكن أن يصدر منهم غيره؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٤/١٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٦/٧٤.

النور: ٥١، قال السمرقندي:" يعني الناجون الفائزون"[١]. وقال السعدي:{ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ } حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكَّم الله ورسوله-ﷺ-"[٢].

إن الظفر بقلبٍ يحب الحق، ويفرح بحُكم الله ورسوله-ﷺ-، ويحصل بذلك على الفلاح الدنيوي والأخروي، هو الذي ينبغي السعي للحصول عليه، أما الحصول على الغرض المتنازع عليه بحُكمٍ باطلٍ طاغوتي، فخسارة محققة، إذ بها يخسر الإنسان دينه، ويتصف بصفة المنافقين، وإن ادعى من اتصف بهذه الصفة الذميمة الإيمان؛ فقد أكذبه الله، وبين أن هذه دعوى يناقضها تصرفه، بعدم رضاه بحكم الكتاب والسنة؛ فقال سبحانه:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ النساء: ٦٠ – ٦١، قال ابن كثير:" هذا إنكار من الله، عز وجل، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله...والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا؛ ولهذا قال: {يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ}"[٣]، فرتب الذم على مجرد إرادة التحاكم، لا على التحاكم نفسه؛ فإذا كان هذا في مجرد إرادة التحاكم إلى الطاغوت، فما الظن بالتحاكم نفسه[٤]. قال الشيخ حمود التويجري[٥]:"ما أكثر المعرضين عن

---

(١) بحر العلوم٢/٥٢٠.

(٢) تفسير السعدي ص٥٧٢.

(٣) تفسير ابن كثير٢/٣٤٧.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود٢/١٩٥.

(٥) الشيخ حمود بن عبد الله التويجري(١٣٣٤-١٤١٣) عالم، عابد، زاهد، صبورٌ ، لا تأخذه في الله لومة لائم. تعلم القراءة والكتابة في صغره، وحفظ القرآن. أجيز في رواية الصحاح والسنن والمسانيد، وفى رواية كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وفي غير ذلك. عيّن في القضاء في عدة مناطق. ألف كتبا ورسائل؛

أحكام الشريعة المحمدية من أهل زماننا! ولا سيما أهل الأمصار، الذين غلبت عليهم الحرية الإفرنجية، وهان لديهم ما أنزل الله على رسوله محمد-ﷺ- من الكتاب والحكمة؛ فاعتاضوا عن التحاكم إليهما بالتحاكم إلى القوانين والسياسات، والنظامات التي ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما هي متلقاة عن الدول الكافرة بالله ورسوله، أو ممن يتشبه بهم ويحذو حذوهم، من الطواغيت الذين ينتسبون إلى الإسلام، وهم عنه بمعزل"[(١)].

فمن أراد النجاة لنفسه فليحرص على معرفة ما أوجبه الله عليه من الكفر بالطاغوت، وليكن تسليمه لحكم الله ورسوله-ﷺ-مصاحباً سروره وفرحه بذلك؛ فلن يكون مؤمناً إلا بذلك، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء: ٦٥، قال الجصاص:"في هذه الآية دلالة على أن من رد شيئاً من أوامر اللّه تعالى أو أوامر رسوله-ﷺ- فهو خارج من الإسلام؛ سواء رده من جهة الشك فيه، أو من جهة ترك القبول؛ والامتناع من التسليم"[(٢)].

فيها من الأدلة والبراهين وحسن التوجيه، وكشف ما وقع فيه بعضا من الخلف من مخالفة منهج السلف؛ ما يجعلها محل اهتمام العلماء والمتعلمين.[انظر: الدرر السنية١٦/٤٨٠].

(١) الدرر السنية١٦/٢٢٧.

(٢) أحكام القرآن٣/١٨١.

٧- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

مفهوم المعروف والمنكر:

قال الراغب:"**المعروف**: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه. **والمنكر**: ما ينكر بهما"(١)، قال أبو البقاء الكفوي:" **المعروف**:كل ما سكنت إليه النفس واستحسنته لحسنه عقلا أو شرعا أو عرفا. **والمنكر**:كل ما نفرت منه وكرهته(٢). وقطعاً فإن الاعتبار بالنفوس التي لم تنحرف عن فطرتها، فهي على فطرة مستقيمة؛ أما إذا انحرفت النفوس عن فطرتها، فقد تستقبح الحسن؛ كما استقبح قوم لوطٍ-عليه السلام-الطهارة(٣).

بيان القرآن أن النجاة تتحقق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن قيام الإنسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ يكشف طيب معدنه، وعِظَم نصحه للآخرين؛ وبراءته من الأنانية المقيتة التي يسير صاحبها على قاعدة: أنا ومن بعدي الطوفان؛ لا يهمه أن يسير الناس في طريق يؤدي بهم إلى السعادة والهناء، أو يسيرون في طريق نهايته التعاسة والشقاء، فلا يأمرهم بمعروف، ولا ينهاهم عن منكرٍ، وإن أمر أو نهى فيكون ذلك بشرط أن لا تقل مكانته عند الناس، أو نظرتهم له بإكبار؛ فإن كان سيؤدي إلى ذلك فلا أمر ولا نهي. من قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن فعله هذا يكشف براءته من تلك الأنانية المقيتة؛ كما بيّن القرآن ذلك؛ في قول الله سبحانه عن من أمروا ونهوا: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُم عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ الأعراف: ١٦٤، فقولهم: {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } تُبَيِن أنهم يريدون الخير للآخرين، قال ابن عباس- رضي الله عنهما- في تفسيرها:"إِنْ يَنْتَهُوا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَنْ لاَ يُصَابُوا وَلاَ يُهْلَكُوا"(٤).

---

(١) المفردات؛ص٥٦١.

(٢) كتاب الكليات؛ ص١٢٨٦

(٣) انظر هذه الرسالة: فصل أنواع النجاة؛ عند الكلام على ما حدث لقوم لوط-عليه السلام- ص١٩٩.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره٢/٩٦. والطبري في تفسيره١٣/١٨٨.

كما يكشف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن جانب آخر في شخصية الآمر والناهي؛ جانبٌ أهم من الجانب السابق، وهو حرصه على إرضاء ربه، أكثر من حرصه على رضاء الخلق، فالمهم أن تكون رايته بيضاء عند ربه؛ وهذا أوضحته الآية السابقة-أيضاً- في قول الله تعالى: ﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ الأعراف: ١٦٤؛ قرئت بالرفع (معذرةٌ)[١]، وبالنصب(معذرةً)[٢]. قال السمرقندي:"حتى نكون معذورين عند الله تعالى"[٣]، وقال السمعاني:"حتى يكون ذلك لنا عذرا عند الله"[٤]، فبنهينا عن المنكر لا ننسب إلى التفريط[٥]، واختلاف تفسيرها مبني على اختلاف القراءة؛ فعلى قراءة النصب يكون المراد: وعظناهم معذرة، أو اعتذرنا به معذرة، وعلى قراءة الرفع يكون المراد:موعظتنا إنهاء عذر إلى الله؛ حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر[٦]. وعلى كل حال فمقصودهم بهذه الكلمة؛ بيان أنهم يريدون إرضاء الله؛ وأن ذلك مقدَّم عندهم على رضاء خلقه. فهم بينوا أنهم ينهونهم عن السوء وإن لم يقبلوا؛ حتى يكون ذلك لهم عذراً عند الله تعالى[٧].

وهذه المعذرة يستفيدون منها بأن تكون سبب نجاة لهم إن كان هناك إهلاك للمعتدين[٨]، وهذا ما حصل فعلاً؛ فإن نهيهم عن المنكر كان سبب في نجاتهم؛ كما بيّن القرآن ذلك في قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ الأعراف: ١٦٥؛ فلقد نزل بالمعتدين عذابٌ

---

(١) بالرفع؛ قرأ؛ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي. [أنظر:السبعة ص٢٩٦].

(٢) النصب؛هي رواية حفص عن عاصم. [أنظر:السبعة ص٢٩٦].

(٣) بحر العلوم١/٥٧٤.

(٤) تفسير السمعاني٢/٢٢٦.

(٥) انظر: الكشاف٢/١٧١.

(٦) انظر: المرجع السابق، وتفسير البيضاوي٣/٦٨. وفتح القدير٢/٣٧٤.

(٧) انظر: تفسير السمعاني٢/٢٢٦.

(٨) أنظر: تفسير الطبري١٣/١٨٧.

عظيم، لقد مسخوا قردة وخنازير؛ قال الله تعالى:﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ الأعراف: ١٦٦.

لقد أكد القرآن، وكرر، وأبدى، وأعاد؛ ضرورة وجود مصلحين-لا صالحين فقط- للنجاة؛ فالمجتمع الذي يوجد به مصلحون، لن ينزل به بأس الله ونقمته:﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ هود: ١١٧؛ قال السمرقندي:"يقال: وفيهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر"[1]، أما إذا أهمل مجتمع هذا الواجب العظيم، أو عمل على التضييق عليه، فإن البلاء سيحل بهم؛ ولو كان فيهم صالحون-غير مصلحين- فعن زينب بنت جحش[2]-رضي الله عنها- أن النبي-ﷺ-خرج يَوْمًا، فَزِعًا مُحْمَرًّا وَجْهُهُ، يَقُولُ: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ! وَيْلٌ لِلْعَرَبِ، مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ ».- وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا-. قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ « نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ »[3]. وعن عَائِشَةَ[4] -رضي الله عنها- قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ-ﷺ-:

---

(١) بحر العلوم٢/١٧٥.

(٢) زينب بنت جحش(٣٣ ق هـ - ٢٠ هـ) بن رئاب الأسدية: أم المؤمنين. إحدى شهيرات النساء في صدر الاسلام، كانت زوجة زيد بن حارثة-ﷺ-، وطلقها ، فتزوج بها النبي-ﷺ- وسماها (زينب)، وكان اسمها (برة). وكانت ورِعَة، عابدة. وبسببها نزلت آية الحجاب. وكانت من أجمل النساء،. وهي التي كانت تسامي عائشة من زوجات النبي -ﷺ- وكانت تفخر على نساء النبي-ﷺ- بأنها بنت عمته وبأن الله زوجها له وهن زوجهن أولياؤهن. وهي أول من حمل بالنعش من موتى العرب. [انظر:الإصابة٧/٦٦٧، والأعلام٣/٦٦].

(٣) أخرجه البخاري٩/٦٠حديث ٧٠٥٩؛ كتاب الفتن؛ باب قول النبي-ﷺ-ويل للعرب من شر قد اقترب، ومسلم-واللفظ له-٤/٢٢٠٧حديث ٢٨٨٠؛كتاب الفتن وأشراط الساعة؛ باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج.

(٤) عائشة أم المؤمنين(٩ ق هـ - ٥٨ هـ) بنت أبي بكر الصديق، تكنى بأم عبد الله: أفقه نساء المسلمين، وأعلمهن بالدين والأدب. تزوجها النبي-ﷺ- قبل الهجرة، ودخل بها في السنة الثانية للهجرة، فكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه. ولها خطب ومواقف. وما كان يحدث لها أمر إلا

"يَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا ظَهَرَ الْخُبْثُ"(١). فظهور المنكرات، وعدم قدرة الصالحين على إنكارها؛ يجعل ذلك المجتمع عرضة لنزول العذاب فيهم، ثم يبعث الصالحون الكارهون لتلك المنكرات على نياتهم(٢)، وإن كانوا راضين بتلك المنكرات، فهم مشاركون لأولئك في منكرهم، ولو لم يحضروها، فإن الراضي كالفاعل؛ قال النبي-ﷺ-:"إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ، كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا؛ أو قال: أَنْكَرَهَا، كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا، كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا"(٣).

نجد في القرآن آية قد ملئت فوائدَ، ومواعظ، في شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وبينت نجاة أصحابه. وهي قول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ هود: ١١٦؛ قال الطبري:" يقول: لم يكن من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا يسيرًا، فإنهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض؛ فنجاهم الله من عذابه حين أخذ من كان مقيمًا على الكفر بالله عذابُه"(٤)، فهؤلاء هم أولو البقية؛ ومعنى{أولي بقية}؛أي: أولو"بقية من الفهم والعقل، يعتبرون مواعظَ الله ويتدبرون حججه، فيعرفون ما لهم في الإيمان بالله، وعليهم في الكفر به"(٥)؛ فالآية تبين أن الآمرين بالمعروف

أنشدت فيه شعرا. وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض فتجيبهم، ولا يسألونها عن شيء إلا وجدوا عندها علماً.[انظر: سير أعلام النبلاء٢/١٣٥، والأعلام٣/٢٤٠].

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٤٧٩ حديث٢١٨٥، قال الترمذي: حديث غريب؛ وصححه الألباني[أنظر:صحيح الجامع حديث ٨١٥٦].

(٢) انظر الأحاديث الواردة في ذلك؛ في السلسلة الصحيحة للألباني٦/١٩٢.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه٤/١٢٤حديث٤٣٤٥. قال الألباني:"حسن"[انظر:صحيح الجامع، حديث ٦٨٩].

(٤) تفسير الطبري١٥/٥٢٧.

(٥) المرجع السابق.

والناهين عن المنكر؛ هم أولو العقول الراجحة، والنظرة الصائبة، وأهل النجاة الكاملة؛ وبالإضافة إلى نجاتهم هم، فهم سبب في نجاة مجتمعهم الذي يوجدون فيه، إذا كان ذلك المجتمع قد مكّنهم من الأمر والنهي، أما إذا ضيّق عليهم؛ فقد مرّ فيما سبق بيان مصيره.

ومن زيادة تأكيد القرآن على حصول النجاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ضمن لهم النجاة، وحصول أمر آخر معها-وهو السعادة-؛ في قول الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٤؛ قال السمرقندي:" يعني الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر هم الناجون"[(١)]، وقال السعدي:" {الْمُفْلِحُونَ}: الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب"[(٢)]، والنجاة من المرهوب، مع الظفر بالمطلوب؛ وهذا ما يدل عليه لفظ الفلاح[(٣)].

يُخلص من هذا؛ أن القرآن قد بيّن كمال نجاة الآمرين بالمعروف؛ والناهين عن المنكر، وبيّن نجاة المجتمع الذي تكون هذه الشعيرة ظاهرة فيه. كما بيّن القرآن أن خفاء هذه الشعيرة مؤذن بإهلاك المجتمع كله بالعذاب إذا نزل، ولو كان فيه صالحون. وبهذا يتبين ضرورة الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لمن أراد نجاة نفسه، أو أراد نجاة مجتمعه؛ إذ العطب في إهماله واردٌ- والله المستعان-.

---

(١) بحر العلوم١/٢٦١.

(٢) تفسير السعدي ص١٤٢.

(٣) انظر: هذه الرسالة، فصل: ألفاظ النجاة، عند الكلام على لفظ: الفلاح ص٨٥.

٨- الاستغفار:

مفهوم الاستغفار:

الاستغفار: طلب المغفرة. والمغفرة، والغفر:التغطية على الذنوب، والعفو عنها[١]. فالعفو عن الذنب، والوقاية من عقوبته؛ جزء من معنى المغفرة؛ وأصل المغفرة: الستر؛ وكل شيء سترته فقد غفرته، ومن ذلك قول العرب: اصبغ ثوبك بالسواد فهو أغفر لوسخه[٢]؛ لكن لا يقتصر معنى المغفرة على الستر؛ وقد أفاد ابن تيمية أن قصر معنى المغفرة على الستر؛ تقصير في معنى الغَفْر؛ وأن مجرد ستر الذنب مع العقوبة عليه باطناً، أو ظاهراً؛ ليس مغفرة[٣]، فلا يكتمل معنى المغفرة لغة إلا بالستر، والعفو[٤].

ويختلف الاستغفار عن التوبة؛ بأن التوبة تكون مع إقلاعٍ عن الذنب، والاستغفار؛ طلب العفو عن الذنب[٥]، وليس من حقيقة معناه؛ الإقلاع، أو عدمه، ومن هنا يُعلم أن قول من قال:الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين؛ ليس على إطلاقه؛ قال ابن تيمية:"قول من قال من العلماء: الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة، أو يدعي أن استغفاره توبة، وأنه تائب بهذا الاستغفار؛ فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائباً؛ فإن التوبة والإصرار ضدان: الإصرار يضاد التوبة، لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة"[٦].فالاستغفار والتوبة إذن؛ حقيقتان مختلفان؛ وهما سببان لمغفرة الذنوب[٧]، والتوبة أقوى، لكن يجئ أحدهما بمعنى الآخر عند الإطلاق[٨].

---

(١) انظر:المحكم؛مادة(غفر).

(٢) انظر: تاج العروس؛مادة(غفر).

(٣) انظر:مجموع الفتاوى١٠/٣١٨. وانظر:مدارج السالكين١/٣٠٧.

(٤) انظر:المحكم؛مادة(غفر).

(٥) الفروق؛لأبي هلال العسكري١/٤٨.

(٦) مجموع الفتاوى١٠/٣١٩.

(٧) أنظر:المرجع السابق٧/٤٨٧، وشرح الطحاوية ص ٣٢٥.

(٨) انظر:مدارج السالكين١/٣٠٧، وشرح الطحاوية ص ٣٢٥، ومصباح الظلام١/٣٦٢.

الاستغفار؛ دعاء؛ والدعاء قد يستجاب، وقد لا يستجاب[١]، و"الله نهى نبيه-ﷺ-عن الاستغفار للمشركين والمنافقين؛ وأخبر أنه لا يغفر لهم"[٢]، فإذا استجيب كان سبباً لدفع البلاء ورفعه؛ وإذا لم يستجب لم يكن سبباً لذلك، فمن استغفر من غير توبة؛ فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه -وإن لم يتب-، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال[٣].

بيان القرآن أن النجاة تتحقق بالاستغفار:

ما وقع بلاء إلا بذنب؛ فالذنوب هي أسباب البلاء؛ وهذا ما بينه الله تعالى في قوله: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ الشورى:٣٠، قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وما يصيبكم أيها الناس من مصيبة في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم(فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) يقول: فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من الله لكم بما اجترمتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم، ويعفو لكم ربكم عن كثير من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها"[٤]، وما دام أن الذنوب هي سبب كلا بلاء، والاستغفار دعاء فيه طلب العفو عن الذنب؛ فإنه إذا استجيب ذلك الدعاء اندفع سبب البلاء، فتقع النجاة؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"الذُّنُوبُ سَبَبٌ لِلضُّرِّ، وَالِاسْتِغْفَارُ يُزِيلُ أَسْبَابَهُ"[٥].

الاستغفار إذا استجيب فهو سبب لدفع البلاء؛ كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الأنفال: ٣٣؛ قال ابن عباس-رضي الله عنهما-"كان فيهم أمانان: نبي الله-ﷺ-، والاستغفار، فذهب النبي-ﷺ- وبقي الاستغفار"[٦]، ففي الاستغفار دفع العذاب قبل وقوعه إذا استجيب؛

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى١٠/٣١٩.

(٢) المرجع السابق١/١٣٠.

(٣) أنظر: المرجع السابق١٠/٦٥٥.

(٤) تفسير الطبري٢١/٥٣٨

(٥) مجموع الفتاوى١٠/٢٥٥.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٦٩١.

أما إذا لم يستجب فلا يكون سبباً في دفع العذاب؛ وهذا ما بينه الله تعالى في الآية التي تلي هذه الآية في حق أولئك المشركين؛ فقال سبحانه: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الأنفال: ٣٤؛ فهذه الآية ناسخة للأمان الذي أعطيه المشركون في الآية السابقة؛ قاله ابن عباس[١]، وعكرمة[٢]، والحسن البصري[٣]. وكثير من العلماء ضعَّف القول بالنسخ؛ لأن هذه الآية عنده من باب الأخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ[٤]. لكن الظاهر أنه ليس خبراً، وإنما وعد بإنجائهم من العذاب إذا استجيب دعاؤهم، وعلى هذا فالآية الثانية تخبر أن طلبهم العفو لم يستجب لهم، فلذلك لم يعط لهم الأمان. وأفاد الطبري أن أولى الأقوال بالصواب؛ قول من يرى أن الآية دالة على تحقق النجاة بالاستغفار لو حصل، لكنه لم يحصل من المشركين؛ فقال:(وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) من ذنوبهم وكفرهم، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك، بل هم مصرُّون عليه، فهم للعذاب مستحقون؛ كما يقال: "ما كنت لأحسن إليك وأنت تسيء إليّ"[٥]. فهو يرى أن الاستغفار لم يحصل منهم، والذي يظهر-والله أعلم- أن الاستغفار حصل منهم، ولكن لم تحصل استجابته لهم؛ ولذلك لم يكن استغفارهم بمانعٍ من نزول العذاب بهم، وبهذا يظهر وجه قول من قال بالنسخ من علماء الصحابة والتابعين.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في نواسخ القرآن١/١٦٦.

(٢) عكرمة (٢٥ - ١٠٥ هـ): ابن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس-ﷺ: تابعي. أحد الأئمة الأعلام، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. وكان كثير التطواف في البلدان. روى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعيا.[انظر: وفيات الأعيان٣/٢٦٦، ولسان الميزان٩/٣٧٣، والأعلام٤/٢٤٤].

(٣) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره١٣/٥١٧، وابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٦٩٣.

(٤) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس ص٤٦٤، ونواسخ القرآن١/١٦٦، والمصفى لابن الجوزي ص٣٧.

(٥) تفسير الطبري١٣/٥١٧.

خلاصة الجمع بين قوله:(وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)، وبين قوله:(وما لهم ألا يعذبهم):

يتلخص الكلام السابق في الجمع بين الآيتين بالآتي:

إما أن الآية الأولى دالة على أنهم يستغفرون، وقد دفع الله عنهم بهذا الاستغفار، عذاب الاستئصال في الدنيا، والآية الثانية دالة على نوعٍ آخر من العذاب وهو عذاب الآخرة.

أو أن الآية الأولى دالة على أنهم يستغفرون، وأن الاستغفار يدفع عنهم العذاب لو استجيب؛ فإن الاستغفار:دعاء بطلب العفو؛ ولكن الآية الثانية دالة على أن استغفارهم لم يستجب.

أو أن الآية الأولى دالة على أن الاستغفار إذا حصل مانع من وقوع العذاب، ولكن الآية الثانية دلت على أن أولئك المشركين لم يستغفروا؛ ولذلك فهم عُرضة لنزول العذاب بهم، وهذا ما حدث فعلاً حيث عذبهم الله ببدر.

وعلى أي حال من هذه الأحوال المذكورة؛ تكون الآية دالة على أن الاستغفار سبب حقيقي للنجاة.

إن الأنبياء قد وعظوا أقوامهم، وحثوهم على الاستغفار؛ فإنه مع التوبة؛ سبب لاندفاع البلاء؛ قال الله تعالى:﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هود: ٣؛ فوقوع العذاب بهم واردٌ إذا لم يتوبوا ويستغفروا، فنجاتهم منه تكون في توبتهم واستغفارهم. قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإن أعرضوا عما دعوتُهم إليه، من إخلاص العبادة لله، وترك عبادة الآلهة، وامتنعوا من الاستغفار لله والتوبة إليه، فأدبروا مُوَلِّين عن ذلك، (فإني) أيها القوم، (أخاف عليكم عذاب يوم كبير)"(١).

وعذاب الدنيا يندفع بالاستغفار؛ كما بيّن ذلك الله تعالى في قوله:﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ الكهف: ٥٥، قال الخازن:"المعنى أنه لا مانع لهم من الإيمان، ولا من الاستغفار

(١) تفسير الطبري١٥/٢٣٢.

والتوبة؛ والتخلية حاصلة، والأعذار زائلة، فلم لم يقدموا على الإيمان والاستغفار إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ؛ يعني سنتنا بإهلاك الأولين"[١]، وهذا يفيد أن الإيمان والاستغفار هما اللذان يندفع بهما الإهلاك الذي حصل للأولين.

فالآيات السابقة تكشف بجلاء؛ أن الاستغفار سببٌ حقيقي للنجاة من عذاب الدنيا والآخرة، بل سبب للنجاة من كل المضائق؛ فليلزمه من أراد النجاة؛ وهذا قد بيّنه النبي-ﷺ- أيضاً؛ فقال-ﷺ-:"مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ"[٢]؛ قال المناوي:"إذا كان العبد مستيقظاً على نفسه؛ فكلما أذنب أو أعتب؛ أتبعهما استغفارا؛ لم يبق في وبالها وعذابها، وإذا لها[٣] عن الاستغفار؛ تراكمت ذنوبه؛ فجاءت الهموم والضيق والعسر والعناء والتعب، فهذا عذابه الأدنى، وفي الآخرة عذاب النار؛ وإذا استغفر تنصل من الهم؛ فصار له من الهموم فرجا، ومن الضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب"[٤]، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"الذُّنُوبُ سَبَبٌ لِلضُّرِّ، وَالِاسْتِغْفَارُ يُزِيلُ أَسْبَابَهُ"[٥]، وبالتالي تحدث للمستغفر النجاة من كل سوء.

---

(١) تفسير الخازن٣/١٦٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه٢/٨٥ حديث١٥١٨. ضعفه البغوي في شرح السنة٥/٧٩، لكن ابن حجر حَسَّنُه؛ وذكر كلاماً أفاد أنه يدفع كلام ابن حبان، الذي انبنى عليه تضعيف الحديث. [انظر: الأمالي المطلقة ص٢٥١].

(٣) لها: من اللهو، والمراد: غفل عن الاستغفار، وذهل عنه.

(٤) فيض القدير٦/١٠٧.

(٥) مجموع الفتاوى١٠/٢٥٥.

٩- التوبة:

سبق الكلام-آنفاً- في تحديد مفهوم التوبة، وأن أساسها الإقلاع عن المخالفة، بخلاف الاستغفار؛ فإن أساسه الدعاء بالعفو، فإذا غفر الله لأحدٍ عفا عنه جريرة مخالفته، ولو لم يقلع[١].

ومن الأخطاء في تحديد مفهوم التوبة؛ الظن أنها: الترك؛ وهذا خطأ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" قد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائباً؛ بل يكون تاركاً، والتارك غير التائب، فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله، أو لعجزه عنه، أو تنتفي إرادته له بسبب غير ديني، وهذا ليس بتوبة؛ بل لا بد من أن يعتقد أنه سيئة، ويكره فعله لنهي الله عنه، ويدعه لله تعالى؛ لا لرغبة مخلوق، ولا لرهبة مخلوق"[٢].

ولا شك أن التوبة أقوى من الاستغفار؛ فإن الله يغفر بها الذنوب كلها حتى الشرك -كما وعد سبحانه بذلك-، وأما الاستغفار فهو دعاء؛ لا يغفر الله به الكفر والشرك. قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"التوبة تمحو جميع السيئات، وليس شيء يغفر جميع الذنوب إلا التوبة، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وأما التوبة؛ فإنه قال تعالى:﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الزمر: ٥٣؛ وهذه لمن تاب؛ ولهذا قال:{لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ}؛ بل توبوا إليه، وقال بعدها: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الزمر: ٥٤؛ وأما الاستغفار بدون التوبة فهذا لا يستلزم المغفرة؛ ولكن هو سبب من الأسباب السبب"[٣].

---

(١) انظر: الكلام على: مفهوم الاستغفار ص٤١٩.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٣١٨.

(٣) منهاج السنة ٦/١٣٢.

تحقق النجاة بالتوبة:

بالتوبة تحصل النجاة. هذا أمرٌ قد بينه الله تعالى في آياتٍ من كتابه، والمتدبر للقرآن سيجد تلك الآيات إن وفقه الله لها.

من الآيات الدالة على تحقق النجاة بالتوبة قول الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور: ٣١؛ فهذا وعدٌ منه سبحانه للتائبين بالفلاح، والفلاح من الألفاظ الدالة على النجاة- كما سبق[١]- فقوله سبحانه هنا: {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }؛ "أي: تنجون من العذاب"[٢].

إن مما يؤكد تحقق النجاة بالتوبة؛ ما ذكره الله من تحققها لأناس فعلوا كبائر الذنوب إذا تابوا منها؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ مريم: ٥٩ – ٦٠؛ فهؤلاء تركوا أهم الأعمال الصالحة؛ وهي الصلاة، وفعلوا كل ذنب تدعوهم إليه شهواتهم؛ فتوعدهم الله بـ(غياً)؛ – وهو وادٍ من أودية جهنم، أو بئر فيها[٣] يلقى فيه الغواة جزاء غيهم[٤]؛ والمذكورون في الآية قومٌ "كفار؛ لا يصلون لله، ولا يؤدّون له فريضة، فسقة؛ قد آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله، وقد قيل: إن الذين وصفهم الله بهذه الصفة قوم من هذه الأمة يكونون في آخر الزمان"[٥]، ويدل على أنهم كفار أن الله استثنى منهم المؤمنين في قوله: {إلا من تاب وآمن}؛"فلو كان الذين وصفهم بأنهم ضيعوها مؤمنين لم يستثن منهم من آمن، وهم مؤمنون"[٦]. إن أفعالهم الشنيعة ستؤدي بهم حتماً إلى {غياً}؛ لكن يستثنى من هذا الهلاك من خرج منه بالتوبة؛ لقوله

---

(١) انظر: هذه الرسالة؛ فصل ألفاظ النجاة؛ عند الكلام على لفظ: الفلاح ص٨٤.

(٢) بحر العلوم٢/٥١٠.

(٣) انظر: تفسير الطبري١٨/٢١٧.

(٤) انظر: معاني القرآن للنحاس٤/٣٤١.

(٥) تفسير الطبري١٨/٢١٧.

(٦) المرجع السابق١٨/٢١٦.

تعالى في الآية: {إلا من تاب وآمن وعمل صالحا}؛ فالله تعالى يفتح "بهذا الاستثناء باب النجاة من هذا المهوى الذي هوى فيه الضالون إلى جهنم.. فمن دخل هذا الباب، وتاب عما هو فيه من منكرات وضلالات، وصحّح إيمانه باللّه، فهو من عباد اللّه، الذين سيلقاهم فى الآخرة برضوانه، وبجنات لهم فيها نعيم مقيم"(١)

ومثل الآية السابقة؛ قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠؛ فهذه أكابر الذنوب- الشرك، وقتل النفس بغير حق، والزنا-، وهي مؤدية بالإنسان إلى وادٍ في جهنم شديد حره، يسمى {آثاما}(٢)، ولكنه سبحانه بين طريق النجاة من ذلك في قوله: {إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً}؛ فهذا استثناء له من تلك المهلكة العظيمة، وبهذا الاستثناء "يفتح الله باب التوبة لمن أراد أن ينجو من هذا المصير المسيء"(٣).

إن للآثام جزاء سوء يهين صاحبه، وليس ينجي منه إلا التوبة، فليبادر إليها الإنسان مادام في زمن الإمهال، فإن التوبة إذا فات وقتها بحضور الموت، أو بطلوع الشمس من مغربها لا تنفع، ولا يجدي التحسر حينها ولا الزفرات.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن٨/٧٤٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري١٩/٣٠٨.

(٣) في ظلال القرآن٥/٢٥٧٩.

١٠- الدعاء قبل فوات أوانه:

قال النبي ﷺ:"ليس شيء أكرم على الله من الدعاء"(١)، ولعل هذا يبين وجه كثرة الآيات الدالة على تحقق النجاة بالدعاء، فالله تعالى ذكر في كتابه آيات كثيرة فيها تحقق النجاة لمن يدعونه، بل ذكر سبحانه قصصاً عديدة أنجى فيها مشركين؛ لدعائهم إياه بإخلاص، وهذا مما لا يكاد يفوت إدراكه أي قارئ للقرآن، ولو كان ضعيف التدبر له، نظراً لأن القرآن كرر ذلك، وأبدى، وأعاد، والنجاة الحاصلة بسبب الدعاء؛ شملت كُربات الدنيا والآخرة.

من الآيات التي ذكرت تحقق النجاة بالدعاء؛ ما ذكره الله تعالى من قصص عن المشركين حين إحساسهم بالخطر عند ركوبهم البحر، فقد ذكر الله تعالى ذلك في آياتٍ كثيرة؛ منها قوله سبحانه:﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾لقمان: ٣٢؛ قال ابن جرير:" إذا غشي هؤلاء موج كالظلل، فخافوا الغرق، فزعوا إلى الله بالدعاء مخلصين له الطاعة، لا يشركون به هنالك شيئا، ولا يدعون معه أحدا سواه، ولا يستغيثون بغيره"(٢)، وبهذا تحققت لهم النجاة؛ ولهذا قال بعدها:{فلما نجاهم إلى البر}، فالدعاء بإخلاص هو السبب الذي تحققت لهم به النجاة.

وآية أخرى ذكرت نفس المعنى، وهي الآية التي يقول فيها ربنا سبحانه:﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾العنكبوت: ٦٥؛ لقد نجاهم بسبب دعائهم.

إن الحالة التي يعيشونها هي التي أدت بهم إلى فعل ذلك السبب العظيم؛ وهو الدعاء بإخلاص، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه٣/١٥١حديث ٨٧٠؛ في باب الأدعية؛ باب ذكر البيان بأن دعاء المرء لله جل وعلا من أكرم الأشياء عليه؛ قال شعيب الأرناؤوط في تحقيقه:إسناده حسن.

(٢) تفسير الطبري٢٠/١٥٦.

ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ يونس: ٢٢، لقد تحققت لهم النجاة به، فَلَيْتَهُم استمروا عليه بعدها؛ هذا ما ذكّرهم الله به في الآية التي تليها؛ وهي قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ يونس: ٢٣.

إذا كان الدعاء سبباً لرفع ودفع البلاء في حق المشركين؛ فكيف تكون الحالة للموحدين؟!.

إن الدعاء من أعظم الأسباب التي أدت إلى نجاة الأنبياء وأتباعهم، لقد كشف القرآن عن هذه الحقيقة عند ذكره قصة نوح-عليه السلام-مع قومه؛ قال الله تعالى في شأنه: ﴿ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ الأنبياء: ٧٦؛ فإنجاء نوحٍ-عليه السلام-وأهله، كان نتيجة استجابة دعوة دعاها ربه. قال الرازي:"هذا الجواب؛ يدل على أن الإنجاء المذكور فيه؛ كان هو المطلوب في السؤال، فدل هذا على أن نداءه ودعاءه كان بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم"[1]. وقد ذكر الله دعاء نوحٍ-عليه السلام-بالنجاة في آيات أخرى؛ وهي قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ الشعراء: ١١٧ – ١١٩؛ فالآية بينت أن نجاته كانت نتيجة دعوته.

قصة أخرى؛ عن نبي من الأنبياء -عليهم السلام-، كانت النجاة سببها الدعاء؛ وهي التي ذكرها الله عن لوط-عليه السلام- في قوله سبحانه: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ الشعراء: ١٦٨ – ١٧٠؛ قال ابن جرير الطبري:"يقول تعالى ذكره: فاستغاث لوط حين توعده قومه بالإخراج من بلدهم إن هو لم ينته عن نهيهم عن ركوب الفاحشة، فقال(رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي) من عقوبتك إياهم على ما يعملون من إتيان الذكران.(فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) من عقوبتنا التي عاقبنا بها قوم لوط"[2]؛ فنجاته وأهله مسببة بالدعاء-هنا-.

---

(١) مفاتيح الغيب٢٢/١٦٧.

(٢) تفسير الطبري١٩/٣٨٩.

وقال الله تعالى-في قصة يونس عليه السلام-﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨؛ استجيب دعاءه فنجي؛ وليس الأمر خاصاً به؛ بل كل من كان مؤمناً ودعى بدعوته، وهو في كرب استجيب له، وهذا واضح من قوله سبحانه:(وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ)؛ قال الطبري:"يقول تعالى ذكره(فَٱسْتَجَبْنَا) ليونس دعاءه إيانا، إذ دعانا في بطن الحوت، ونجيناه من الغمّ الذي كان فيه بحبْسناه في بطن الحوت وغمه بخطيئته وذنبه (وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ)، يقول جلّ ثناؤه: وكما أنجينا يونس من كرب الحبس في بطن الحوت في البحر إذ دعانا، كذلك ننجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا"[1]. وهذا الذي دلت عليه الآية؛ قد دلت عليه السنة أيضاً؛ قال النبي -ﷺ-:"دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ"[2].

الدعاء سبب للنجاة من الأمراض والأضرار؛ دل القرآن على ذلك من خلال ما قصه عن أيوب-عليه السلام- ذلك النبي الصابر؛ قال الله سبحانه:﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤؛ لقد أعطاه الله فوق ما دعا؛ فقد طلب النجاة من الضر، فكشف الله عنه الضر؛ وآتاه مع ذلك أهله ومثلهم معهم.

وسلوك هذا السبب-وهو الدعاء للحصول على النجاة- الذي سلكه الأنبياء-عليهم السلام- قد سلكه أتباعهم أيضاً؛ فهذه امرأة فرعون، قد دعت الله أن ينجيها من فرعون، ومن أعماله؛ قال الله تعالى:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ

---

(١) المرجع السابق١٨/٥١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه٥/٥٢٩،حديث٣٥٠٥؛ قال الألباني:صحيح[انظر:صحيح الجامع حديث:٣٣٨].

لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ التحريم: ١١.

إن الدعاء من أقوى الأسباب لحصول النجاة، فالقصص الواقعية قد أكدت هذه الحقيقة حتى في حق المشركين-الذين يكفرون بالقرآن-، ولذلك فإن من العجيب حقاً أن يترك هذا السبب مع تيسره. لقد ذكر القرآن بؤس أمم عديدة قست قلوبهم عن هذا السلاح العظيم؛ قال الله سبحانه:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ الأنعام: ٤٢ ـ ٤٤؛ فقط كان المطلوب أن يتضرعوا، ولكنهم لم يفعلوا؛ فأخذوا بغتة. قال الزمخشري:"{ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ } معناه؛ نفى التضرع، كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا. ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم"[1]، فالآية فيها"عتاب على ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرعوا حين نزول العذاب"[2]، فهذا حدث من كفار الأمم السابقة، وحدث من كفار هذه الأمة أيضاً؛ كما أخبر الله عن ذلك بقوله:﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ المؤمنون: ٧٦؛ قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا، وسخطنا وضيقنا عليهم معايشهم، وأجدبنا بلادهم، وقتلنا سراتهم بالسيف؛ (فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)"[3]؛ وهذا درس ينبغي أن يستوعبه المؤمنون؛ قال الحسن البصري:"لا تستقبلوا نقمة الله بالحمية، ولكن استقبلوها بالاستغفار، وتضرعوا إلى الله، وقرأ هذه الآية:(وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ

---

(١) الكشاف٢/٢٣.

(٢) تفسير القرطبي٦/٤٢٥.

(٣) تفسير الطبري١٩/٦٠.

)"[١]؛ فاضرع الله إن أصابك بلاء، وادعه، ولا تتجلد عن ذلك، ولكن تجلد عن الشكوى للمخلوقين؛ واجعل شكواك إلى الله. قال ابن القيم:"العبد أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه؛ بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه؛ وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحب من يشكو ما به إليه"[٢].

فمن ترك الدعاء هالك مذموم، والمتصبر على ما به من البلاء عن الدعاء؛ خاسر مبتور، ومن سلك هذا السبب نجا من البلاء، وحصل على عظيم الجزاء، ولو لم يأته من ذلك إلا أنه مقتدٍ بالأنبياء، لكان كافياً؛ ولكن المحروم محروم.

والآيات السابقة كلها قد بينت عِظَم شأن الدعاء في حصول النجاة من مصائب الدنيا وكروبها؛ وقد بيّن القرآن فيما قصه عن أهل الجنة؛ كيف أنهم عَرَفوا أن نجاتهم كانت من ثمرات دعائهم؛ قال الله تعالى مبيناً ذلك:﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الطور: ٢٧ ـ ٢٨؛ فوقاية أهل الجنة من عذاب السموم كانت بسبب ذلك الدعاء؛ قال الطبري في قوله سبحانه عنهم:{ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ }:"يعني فنجَّانا من النار، وأدخلنا الجنة"[٣]. وقولهم:{ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ }؛ أي:" نعبده، ونسأله الوقاية"[٤]؛ فهو شامل للأمرين: العبادة بإخلاص، والسؤال؛ كما بيّن ذلك ابن القيم حينما تعرَّض لتفسير هذه الآية؛ فبيّن أن المراد بالدعاء هنا "دعاء العبادة؛ المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى إنا كنا من قبل نخلص له العبادة، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره"[٥]؛ قال:"والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٩/٦٠.

(٢) عدة الصابرين ص٣٦.

(٣) تفسير الطبري٢٢/٤٧٦.

(٤) الكشاف٤/٤١٢.

(٥) بدائع الفوائد٣/٥١٧.

العبادة؛ لا بمجرد السؤال والطلب"[١]. وقولهم: {إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ}؛ أي:فهو "إذا عُبِدَ أثاب، وإذا سُئِل أجاب"[٢].

"قرأت عائشة- رضي الله عنها- قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ الطور: ٢٧ – ٢٨؛ فقالت: اللهم مُنَّ علينا، وقِنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم. قيل للأعمش[٣]: في الصلاة؟ قال: نعم"[٤].

فهذا الدعاء؛ وهذا شأنه في حصول النجاة للعبد في الدنيا والآخرة.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الكشاف٤/٤١٢.

(٣) الأعمش(٦٠ – ١٤٨ هـ): سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، أبو محمد: تابعي، مشهور. أصله من بلاد الري، ومنشأه ووفاته في الكوفة. إمام، قارئ، حافظ، بل شيخ المقرئين والمحدثين. كان يقرأ القرآن في كل شعبان على الناس- في كل يوم شيئا معلوماً- فيعارضون مصاحفهم ويصلحونها على قراءته. لم تفته التكبيرة الأولى قريبا من سبعين سنة. وبهذا صحّ ما قال بعضهم عنه أنه كان رأسا في العلم النافع، والعمل الصالح. ومما ذُكر من صفاته أنه لم يُر السلاطين والملوك والأغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الأعمش مع شدة حاجته وفقره. [انظر:الطبقات الكبرى٦/٣٤٢، وصفة الصفوة٣/١١٧، وسير أعلام النبلاء٦/٢٢٦، ولسان الميزان٩/٣١٨، والأعلام٣/١٣٥].

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره١٠/٣٣١٦.

١١- التوكل، والأسباب المادية المؤدية لذلك:

توطئة: ناسب الجمع بين هذين السببين في عنوان واحدٍ؛ لوجود لبس في أذهان بعض الناس عنهما؛ فبعض الناس يرى أن الإتيان بالأسباب المادية قادحٌ في التوكل، وبعض الناس ينسى أمر التوكل عندما يقوم بالأسباب المادية، ويجعل كل اعتماده على تلك الأسباب التي فعلها.

كلا التصرفان السابقان مجانبان للصواب؛ ومن تأمل القرآن الكريم يجد بياناً شافياً في هذا، فلقد بيّن القرآن الكريم أن الأسباب المادية؛ أسبابُ نجاة حقيقية؛ وبيّن أنها تحقق بإذن الله ذلك في مجالها، ولكن التوكل عليها نقص في توحيد الإنسان. وبالمقابل فإن التوكل-وهو سببٌ من الأسباب- لا يقتضي ترك القيام بتلك الماديات التي جعلها الله أسباباً؛ قال ابن تيمية:"الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع؛ فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدا على الله لا على سبب من الأسباب؛ والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة؛ فإن كانت الأسباب مقدورة له؛ وهو مأمور بها؛ فعلها مع التوكل على الله"[(١)].

وهنا أمر ينبغي التفطن له؛ وهو أن الأسباب المؤدية إلى المقصود؛ قد تكون محرمة، فعليه أن يتجنبها، وإن كانت أسباباً مؤثرة-كالسحر، الذي يحبب المرأة إلى زوجها، والعكس، فهو حرامٌ وإن كان مؤثراً، فلا يفعل من الأسباب إلا ما أذن فيه الشرع، ويفعلها وهو غير معتمدٍ عليها، بل يكون اعتماده على الله، وهذا هو التوكل.

وأمرٌ آخر؛ وهو أن الأسباب قد تكون غير مقدورة للمكلَف-كمن كان لمرضه علاج لا يدركه- فهنا؛ يكتفي بالتوكل والدعاء.

وأمرٌ آخر؛ وهو أن هناك من الناس من إذا فعل نوعاً من الأسباب، أضعف ذلك توكله، وكان التفاته إلى السبب، فترك مثل هذا للسبب للإبقاء على التوكل أمثل له، لأن سببية التوكل أقوى من سببية السبب المادي.

---

(١) مجموع الفتاوى٨/٥٢٨، وانظر: مدارج السالكين٢/١١٨، وتيسير العزيز الحميد ص٨٧.

هذه الخلاصة في الأسباب والتوكل أفادها ابن تيمية في الاستقامة[١].

ويحسن هنا تناول الأسباب والتوكل؛ كلٌ على حدة:

أ- الأسباب:

الأسباب تحقق النجاة-بإذن الله- في مجالها

لقد بيّن القرآن في آيات من آياته العظيمة مكانة الأسباب المادية في تحقيق ما وُضعت له-بإذن الله- سواء كانت موضوعة لتحقق الشر-كالسحر- أو لتحقق الخير-كالدلالة على الطرق-، ومن ضمن ذلك ما بينه من وجود أسباب موضوعة لتحقق بها النجاة من أشياء معينة؛ وقد امتن الله على خلقه بجملة أسباب تحقق أنواع نجاة في مجالها، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ النحل: ٨١؛ ففي هذه الآية جملة أسباب تحصل بها الوقاية من جملة شرور؛ فأول ما ذكر في الآية قوله:(مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا)؛ قال قتادة:"إي والله، من الشجر ومن غيرها"[٢]، ومنه؛ ظلال السقوف، والأبنية[٣]، وظلال الغمام، والحيطان، وكل شيء له ظِل[٤]، فهذه المخلوقات ظِلالا يستظلون بها من شدة الحرّ[٥]، فامتن الله على خلقه بهذه الأشياء التي تحقق لهم الوقاية من حر الشمس، وتنجيهم منه- بإذن الله-

ثم ذكر الله تعالى سبباً آخر تحقق به النجاة من شدة أخرى؛ وهو قوله:(وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا)؛ "الأكنان: جمع كِنّ؛ وهو الموضع الذي يستكّن فيه"[٦]، فـ"الكِنُّ: وِقاءُ

---

(١) الاستقامة١/١٥٤.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٧/٢٦٩.

(٣) انظر: الكشف والبيان٦/٣٤.

(٤) انظر: زاد المسير٤/٤٧٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري١٧/٢٦٩.

(٦) النكت والعيون٣/٢٠٥.

كلِّ شيءٍ؛ وسِتْرُهُ"(١)، فالجبال يتحقق لهم بها -بإذن الله- الوقاية من شر الأعداء عندما يستكنون بها منهم، وأيضاً فيها غيران يسكنونها(٢)، ولا شك أنها أسبابٌ لتحقيق ذلك، لا أنها فاعلة له.

ثم ذكر سبحانه سبباً آخر تتحقق به النجاة من شدة؛ وهو قوله:(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ)؛ والسرابيل: هي القُمُص، واحدها: سربال(٣)، قال قتادة:"القطن، والكتان"(٤)، وقد ذكر الله في الآية صراحة نوع النجاة التي تحصل به؛ فقال:(تقيكم الحر)، وبعض المفسرين يرى أن في الآية إشارة إلى الملابس التي تقي من البرد أيضاً(٥).

وفي الآية سببٌ أخر تتحقق به النجاة من شدة أخرى؛ وهو الذي ذكره الله بقوله:(وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ)؛ وهي الدروع؛ قال الطبري:"يقول: ودروعا تقيكم بأسكم، والبأس: هو الحرب، والمعنى: تقيكم في بأسكم السلاح أن يصل إليكم"(٦). فالدروع التي يلبسها المحاربون؛ تحصل لهم بها النجاة من أنواعٍ من الجراحات، وتقيهم من كثير من الضربات.

فهذه أسبابٌ متعددة؛ تحصل بها أنواعٌ من النجاة، وهذا أمرٌ ظاهرٌ مشاهدٌ، وتنصيص القرآن عليه، هو لفت للأذهان إلى عظيم النعمة الحاصلة بها، ودعوة إلى شكر المنعِم سبحانه وبحمده.

وفي آياتٍ أخرى يبين الله تعالى سبباً آخر يحصل به نوع من النجاة؛ ذكر الله تعالى النجاة التي تحصل بالاستدلال بالنجوم؛ في قوله سبحانه:﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ النحل: ١٦؛ وفي قوله سبحانه:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ

---

(١) انظر: تاج العروس؛ مادة(كنن).

(٢) انظر:تفسير الطبري١٧/٢٧٠.

(٣) انظر: كتاب العين؛ مادة(سربل).

(٤) أخرجه عنه عبد الرزاق في تفسيره٢/٢٧٥، والطبري في تفسيره١٧/٢٧٠.

(٥) انظر: تفسير الطبري١٧/٢٧١.

(٦) المرجع السابق ١٧/٢٧٠.

فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ الأنعام: ٩٧؛ قال الطبري:" قول الله تعالى ذكره: والله الذي جعل لكم، أيها الناس، النجوم أدلةً في البر والبحر إذا ضللتم الطريق، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلا تستدلّون بها على المحجَّة، فتهتدون بها إلى الطريق والمحجة، فتسلكونه وتنجون بها من ظلمات ذلك، كما قال جل ثناؤه: (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)"[1].

إن ذكر القرآن لهذه الأسباب ليس من أجل الاعتماد عليها، وإنما من أجل التنبيه إلى عظيم منّة المنعم بها، ووجوب القيام بحقه من شكره وعبادته.

الأسباب لا تحقق النجاة إلا بإذن الله:

سبق إيضاح بيان القرآن في نفع الأسباب-إذا أراد الله نفعها-؛ ولكن القرآن قد بيّن من جهة أخرى أن الأسباب بنفسها لا تغني شيئاً إذا لم يرد الله تعالى نفعها. قال الله تعالى:﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ الأحزاب: ١٦ – ١٧؛ فالفرار لن ينجيكم من الموت أو القتل؛ لأن ما كتب الله منهما واصل إليكم بكل حال، كرهتم أو أحببتم[2]، فالقرآن أوضح هذا؛ مع أن الفرار سببٌ محسوس للنجاة من القتل في الحرب، لكنه لن يغني شيئاً إذا قدر الله خلاف ذلك؛ فهذا توجيه من الله تعالى للمؤمن أن لا يفعل من الأسباب إلا ما أذن الشرع فيها؛ وأن الأسباب لا تنفع إذا لم يُقدِّر الله فيها النفع.

أيضاً- ذكر القرآن في آياتٍ كثيرة ما فعله فرعون من قتل ذكور بني إسرائيل؛ خوفاً من أن يولد فيهم من ظن أن زوال ملكه على يديه- على ما قيل- ففعل ما ظنه سبباً لعدم حصول ذلك؛ وإذ به لا يحقق ما أراد بذلك السبب، بل إنه يربي في بيته وعلى نفقته رجلاً من بني اسرائيل كان زوال ملكه على يديه-بإذن الله-، وقد مرّ ذكر ذلك في هذه الرسالة[3].

---

(١) المرجع السابق١١/٥٦١.

(٢) انظر: المرجع السابق٢٠/٢٢٨.

(٣) انظر: هذه الرسالة، فصل: أنواع النجاة، عند الكلام على غرق فرعون وآله، ص١٧٠.

الاعتماد على الأسباب؛ خطأ وضلال، وقد بيّن القرآن هذا في ذكره قصتي يهود بني النضير، وبني قريظة[١]، حيث اعتقدوا أن السبب الذي فعلوه ينجيهم، فخاب ظنهم؛ قال الله تعالى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ الحشر: ٢؛ قال البغوي:"أي: وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله"[٢]، وقال القرطبي:"كانوا أهل حَلْقَة-أي سلاح كثير- وحصون منيعة؛ فلم يمنعهم شيء منها"[٣]، لقد خيّب الله ظنهم، وأنزلهم من تلك الحصون المنيعة، فخرجوا هم بأنفسهم؛ يُسْلِمون أنفسهم للقتل.

وما حصل ليهود بني النضير؛ حصل أشد منه ليهود بني قريظة؛ كان نصيب أولئك الإجلاء، ونصيب هؤلاء القتل والأسر؛ لم تنفعهم الحصون التي شيدوها ظناً منهم أنها تمنعهم من الله. ذكر الله قصتهم في قوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ الأحزاب: ٢٦؛ قال قتادة:صياصيهم:حصونهم[٤]، وقال ابن زيد:"الصياصي: حصونهم؛ التي ظنوا أنها مانعتهم من الله تبارك وتعالى"[٥]، لقد خاب الظن الذي ظنوه بتلك الحصون؛ فقد حصل ما ذكره الله هنا "{ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ } وهم الرجال، يقال: كانوا ستمائة، { وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا } وهم النساء

---

(١) النضير، وقريظة؛ أخوان يتصل نسبهما بهارون النبي-ﷺ-؛ -فبنو النضير، وبنو قريظة جماعتان يهوديتان ينتسبان إليهما؛ وهما تفخران على سائر اليهود بهذه النسبة؛ وبنو النضير أشرف من بني قريظة؛ وتعرف الجماعتان عند اليهود بـ(الكاهنين) نسبة إلى جدٍ لهم كان كاهناً، والجماعتان سكنتا قلعتين في المدينة. وتحالفا مع الأوس والخزرج؛ بنو قريظة تحالفوا مع الأوس، وبنو النضير حالفوا الخزرج.[انظر: الأنساب للسمعاني٥/٥٠٣، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام١٢/٩٨،١١٠].

(٢) معالم التنزيل٨/٧٠.

(٣) تفسير القرطبي١٨/٣.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره٣/٣٥.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره٢٠/٢٤٩.

والذراري، يقال: كانوا سبعمائة وخمسين، ويقال: تسعمائة"[١]؛ فقتلوا شر قتلة، وسبوا أشد سبي؛ فإن" رسول الله-ﷺ-حاصرهم خمساً وعشرين يوماً فلما اشتد حصرهم، واشتد البلاء عليهم، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله-ﷺ-، فاستشاروا أبا لبابة، فأشار إليهم: أنه الذبح، فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فأنزلوا على حكم سعد؛ فجعلوا يقولون: يا أبا عمرو، حلفاؤك، ومواليك، وأهل النكاية، ومن قد علمت؛ فلا يرجع إليهم قولا، حتى إذا دنا من ذراريهم، التفت إلى قومه، فقال:قد آن لسعد أن لا يبالي في الله لومة لائم، فقال له رسول الله-ﷺ-:"احكم فيهم"، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، قال رسول الله-ﷺ-: "لقد حكمت فيهم بحكم الله ورسوله"[٢].

إن ما بينه القرآن في الآيات السابقة من عدم نفع الأسباب إذا لم يأذن الله بنفعها؛ يجعل المؤمن ينزِّل الأسباب منزلتها، من غير غلو ولا تقصير، فهو يأخذ بالأسباب المباحة النافعة، ولكنه يعتمد على الله لا عليها، ويعلم أنها لا تضر ولا تنفع إلا بإذن الله، فهو الذي وضعها، وقد يغير من طبيعتها، كما غيّر طبيعة النار التي أرادوا إحراق إبراهيم-عليه السلام- بها؛ فجعلها برداً وسلاماً، عكس طبيعتها.

كما أن المؤمن يستلهم هدي الآيات السابقة، فيبتعد عن الأسباب المحرمة، وإن كان يعتقد أنها تؤدي المقصود منها، كالفرار من الزحف، فإنه وإن كان يؤدي إلى السلامة من القتل ظاهراً، لكن الله قد عابه؛ وبيّن أنه لا يرد عن العبد ما قدّره الله عليه، وأن هذا الذي يظهر للناس من سلامة من ترك القتال ما هو إلا فتنة يختبر الله به صدق إيمان العبد من كَذِبه. كما قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ آل عمران: ١٥٦؛ قال الخازن:"لا تكونوا مثل المنافقين؛ لأن مقصدهم تنفير المؤمنين عن الجهاد بقولهم:{ لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ } فإن الله

---

(١) معالم التنزيل٦/٣٤٤.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه١٥/٥٠٠، حديث ٧٠٢٨؛ كتاب إخباره-ﷺ-عن مناقب الصحابة-رضي الله عنهم أجمعين-؛ باب ذكر سعد بن معاذ الأنصاري رضوان الله عليه.

تعالى هو المحيي المميت، فمن قدَّر له البقاء لم يقتل في الجهاد؛ ومن قدَّر له الموت لم يبق وإن أقام ببيته عند أهله"[١] وقال البيضاوي:"أي لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول والاعتقاد؛ ليجعله حسرة في قلوبهم خاصة"[٢].

كما يبتعد المؤمن عن كل سبب يؤدي به إلى محاربة شرع الله، فإن الله هو الغالب، ولم ينفع فرعون ما فعله من الأسباب لإطفاء نور الله، ولم ينفع المشركون ما فعلوه، ولم ينفع اليهود والنصارى ما فعلوه من الأسباب التي اجتهدوا في إحكامها؛ ليطفئوا نور الله بأفواههم؛ فالله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وسيأتي مزيدٌ من بيان القرآن لهذا؛ في فصل ضوابط النجاة من هذه الرسالة-بإذن الله[٣].

---

(١) تفسير الخازن١/٣١١.

(٢) تفسير البيضاوي٢/١٠٧.

(٣) انظر: ص٦٠١.

ب- التوكل:

حقيقة التوكل: السكون إلى الله في تحقيق المراد؛ وخلع السكون إلى الأسباب التي يباشرها لتحقيق المراد، وعدم خوفها أو رجائها؛ فيرفض الأسباب عن قلبه، لا عن جوارحه[١].

أو بعبارة أخرى: اعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ فِي حُصُولِ مَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ؛ مَعَ مُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ[٢].

فمباشرة الأسباب لا تنافي التوكل، ولا تقدح فيه، إذا صح اعتماد القلب على الله في تحقيق المراد. لكن بعض الناس عند فعله الأسباب؛ يعتمد عليها، ففساد توكل هذا ليس لمباشرته الأسباب، بل لصرفه الاعتماد عن الله إلى الاعتماد عليها؛ فيحتاج المؤمن عند فعله الأسباب إلى التيقظ.

التوكل سبب للنجاة:

ليس التوكل سبب للنجاة كأي سبب؛ بل إنه من أقوى الأسباب، فحتى الكفار إذا قوي توكلهم حققوا مراداتهم؛ وإن كان ذلك لا ينفعهم في الآخرة[٣].

أكد القرآن فاعلية التوكل في تحقيق النجاة في آياتٍ عديدة، وكلما كان تدبر الإنسان لما يقرأ أعظم، كان معرفته بهذا الأمر أكبر. كما أن القرآن نوَّع الأساليب الدالة على ذلك؛ فمرة يقص أثر التوكل على المتوكلين؛ ومن ذلك ما قصه عن توكل النبي -ﷺ- والصحابة-ﷺ-في غزوة حمراء الأسد؛ حيث قال الله تعالى-مادحاً أولئك الكرام-: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ آل عمران: ١٧٣ ــ ١٧٤؛ فقولهم:حسبنا الله ونعم الوكيل؛ بيانٌ منهم لتوكلهم على الله؛ فهذه الآية من الآيات القرآنية الكثيرة الدالة على أن

---

(١) انظر: مدارج السالكين٢/١٢٠.

(٢) انظر: زاد المعاد٤/١٤.

(٣) انظر:مجموع الفتاوى٣/١٢٥، وتقريب التدمرية ص١٣٣.

التوكل سبباً للحفظ والوقاية من السوء[١]. وقولهم:(ونعم الوكيل)؛ أي نعم الَّذِي تُوكَلُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ هُوَ، فَإِنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَنْصُرَنَا عَلَيْهِمْ عَلَى قِلَّتِنَا وَكَثْرَتِهِمْ، أَوْ يُلْقِيَ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَكْفِيَنَا شَرَّ بَغْيِهِمْ وَكَيْدِهِمْ؛ وَفعلاً قَدْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ ثمرة لتوكلهم[٢]؛ فما أروع هذه الصورة؛ صورة التوكل على الله وحده، وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم[٣]، وما أعظم الثمرة التي أثمرها ذلك التوكل الرائع الذي عبروا عنه بذلك الكلام العظيم.

إن التوكل على الله يقضي على كيد الماكرين الخفي، فمن صح توكله على الله فلا يبال بمن يمكرون به؛ قال الله تعالى في قصة مؤمن آل فرعون:﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ غافر: ٤٤ ـ ٤٥؛ فقوله:(وأفوض أمري إلى الله)؛ قال الطبري:" يقول: وأسلم أمري إلى الله، وأجعله إليه وأتوكل عليه، فإنه الكافي من توكل عليه"[٤]، وقوله:(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا) أي: دفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون بإيمانه وتصديق رسوله موسى، مكروه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه من العذاب والبلاء، فنجاه منه"[٥]. هم الحكام-ولهم وسائلهم وإمكانياتهم- ، وهم الأقوياء، وهم جمع، وهو فرد؛ ولكن قد أمكنه الله من شيء لم يمكنهم منه؛ لقد أمكنه من التوكل؛ فصح توكله، فذهبت خططهم الماكرة أدراج الرياح، وأنجاه الله منهم. ولهذا نجد الله تعالى يوجه أولياءه إلى إحكام التوكل في الأمور التي يزيد فيها احتمال المخادعة والمكر؛ ومن ذلك قول الله تعالى لنبيه-ﷺ-:﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ الأنفال: ٦١ ـ ٦٢؛ فهؤلاء الذين أظهروا الرغبة في السِلم، قد لا يكون عندهم رغبة حقيقية فيه، ولكنهم عمدوا إليه مخادعة

---

(١) انظر: أضواء البيان٦/٣٨٨.

(٢) انظر: تفسير المنار٤/١٩٩.

(٣) انظر: في ظلال القرآن١/٥٢٠.

(٤) تفسير الطبري٢١/٣٩٤.

(٥) انظر: المرجع السابق٢١/٣٩٤.

ومكراً بك؛ فإن كان الأمر كذلك (فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ)، يقول: فإن الله كافيكهم وكافيك خداعَهم إياك"[١]؛ فالمراد من الكلام على هذا؛ إن أرادوا الصلح؛ فـ"صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك وحده"[٢]؛ فالتوكل أعظم سبب إن لم يكن هناك سبب؛ وإن كان هناك سبب؛ فإن ذلك السبب لا يعمل شيئاً إلا بإذن الله، فتوكل على من لا تعمل الأسباب شيئاً إلا بإذنه؛ لتؤدي الأسباب إلى تحقق الأمر الذي أريد فعلها لأجل حصوله. وإن مما يقوي التوكل عند إحساس الإنسان بأنه يُكاد له؛ أن يعرف أن الأسباب المادية لا تؤتي نتائجها إلا إذا أذن الله؛ وهذا هو ما بيّنه الله تعالى للمؤمنين، الذين كانوا يتخوفون من النجوى المحرمة التي كان يفعلها بعض الناس؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ المجادلة: ١٠؛ قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وليس التناجي بضارّ المؤمنين شيئا إلا بإذن الله، يعني بقضاء الله وقدره...فعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ أَهْلُ الإِيمَانِ بِهِ فِي أُمُورِهِمْ، وَلاَ يَحْزَنُوا مِنْ تَنَاجِي الْمُنَافِقِينَ وَمَنْ يَكِيدُهُمْ بِذَلِكَ، فإِنَّ تَنَاجِيَهُمْ غَيْرُ ضَارِّهِمْ إِذَا حَفِظَهُمْ رَبُّهُمْ[٣].

لا تبال بضعف السبب المادي إذا عَظُم التوكل؛ هذا ما أرشد إليه ربنا سبحانه؛ في قصته قصة أصحاب بدر؛ فإن المنافقين، ومرضى القلوب؛ لما رأوا قلّة المؤمنين في بدر، ورأوا أنهم قد أرادوا ملاقاة قريش بعددها وعتادها؛ وقفوا عند السبب المادي؛ فقالوا ماذكره الله عنهم بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ الأنفال: ٤٩؛ قال الطبري:" (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض)، يعني: شك في الإسلام، لم يصحَّ يقينهم، ولم تُشرح بالإيمان صدورهم:(غر هؤلاء دينهم)، يقول: غر هؤلاء الذين يقاتلون

(١) انظر: المرجع السابق١٤/٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير٤/٨٤.

(٣) تفسير الطبري٢٣/٢٤٣

المشركين من أصحاب محمد-ﷺ-من أنفسهم، دينُهم"[١]؛ فهؤلاء وقفوا مع السبب المادي؛ ورأوه ضعيفاً؛ مقارنة بقوة المشركين الضاربة؛ ولكنهم لا يعلمون شيئاً وراء ذلك، فذكر الله ذلك الشيء الذي يجهلونه بقوله في ختام الآية: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ الأنفال: ٤٩؛ قال الطبري:هذا أمرٌ من الله جل ثناؤه أمر المؤمنين به من أصحاب رسول الله-ﷺ-وغيرهم، أن يفوِّضوا أمرهم إليه، ويسلموا لقضائه، كيما يكفيهم أعداءهم، ولا يستذلهم من ناوأهم، لأنه "عزيز" غير مغلوب، فجاره غير مقهور؛ "حكيم" لا يدخل تدبيره خلل[٢].

إن المتوكل مكفي إذا صح توكله، والله تعال هو الذي يكفيه بنفسه؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ الطلاق: ٣؛ قال التستري:" يعني من يكل أموره إلى ربه فإن اللّه تعالى يكفيه مهم الدارين أجمع"[٣]، وقال ابن القيم:"جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على اللّه حق توكله؛ وكادته السموات والأرض ومن فيهن؛ لجعل له ربه مخرجا من ذلك، وكفاه ونصره"[٤]، وقال القرطبي:"من فوض إليه أمره؛ كفاه ما أهمه"[٥]. فهذه المعاني المأخوذة من هذه الآية تؤكد أهمية التوكل في حصول النجاة من كل سوء.

إذا كان الله تعالى قد بيّن أنه يكفي عبده المتوكل عليه؛ كل كيدٍ، وكل سوء، وكل شيء؛ ولو كان لتلك الأشياء حقائق مادية ملموسة؛ فإن من الأولى أن الله يدفع عن عبده المتوكل عليه؛ شرور الأشياء الموهومة، التي يصطنع لها قدرات الهائلة في أذهان المتوهمين؛ وهذا ما بينه القرآن فعلاً؛ حيث أمر الله تعالى نبيه-ﷺ-أن يبين للمشركين، أن لا يبال بآلهتهم التي يدعون من دون الله، لأنه متوكل على الله، وأن الله هداه لعقلٍ رشيد يعرف به أن تلك الآلهة لا ترد

---

(١) المرجع السابق١٣/١٢.

(٢) انظر:المرجع السابق١٣/١٥.

(٣) تفسير التستري ص ١٧٠.

(٤) بدائع الفوائد٢/٤٦٥.

(٥) تفسير القرطبي١٨/١٦٢.

ضراً قد قدّره الله، ولا تمنع نفعاً أراده الله؛ فقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الزمر: ٣٨؛ قال السمرقندي:"قل حسبي الله؛ يعني: يكفيني الله من شر آلهتكم"(١). ثم قال سبحانه:{ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ }؛ قال السعدي:"أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده - وحده - الكفاية هو حسبي، سيكفيني كل ما أهمني وما لا أهتم به"(٢).

إن العبد إذا تحقق قلبه هذا المعنى بكماله، وأن الله يكفي المتوكل كل شر؛ سواء كان محسوساً، أو متوهما؛ إذا تحقق في قلبه ذلك فإنه لن يبالي بأي كيدٍ يكاد له مهما بلغت قوته المحسوسة، أو الموهومة؛ وهذا ما بينه القرآن في قصص بعض الأنبياء-عليهم السلام- فقد بينه عن نوحٍ-ﷺ-؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ يونس: ٧١؛ قال الواحدي:"المعنى:لا تألوا في الجمع والقوة؛ فإنكم لا تقدرون على مساءتي؛ لأن لي إلها يمنعني"(٣)، قال الرازي:"ومعلوم أن مثل هذا الكلام يدل على أنه-ﷺ-كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى؛ وأنه كان قاطعاً بأن كيدهم لا يصل إليه؛ ومكرهم لا ينفذ فيه"(٤)؛ فقوله:{فعلى الله توكلت} ليدلهم على أنه واثق بوعد الله جازم بأن تهديدهم إياه بالقتل لا يضره"(٥)؛ وقوله:{لا يكن أمركم عليكم غمة}؛ الغم: هو الإسرار؛ فهو يقول لهم لا تُسِروا أمركم؛ فإن الإسرار إنما يراد لسد باب الهرب أو نحوه؛ وهذا مستحيل في حقي؛ فليس للسر

(١) بحر العلوم٣/١٧٩.

(٢) تفسير السعدي ص ٧٢٥

(٣) الوجيز ص٥٠٤.

(٤) مفاتيح الغيب١٧/١١٢.

(٥) غرائب القرآن٣/٦٠٣.

وجه. وإنما خاطبهم-ﷺ-بذلك إظهارا لعدم المبالاة بهم، وثقة بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكلاءته[١]. قال الطبري:"وهذا وإن كان خبرًا من الله تعالى عن نوح-عليه السلام-؛ فإنه حثٌّ من الله لنبيه محمد-ﷺ-على التأسّي به"[٢].

وهذا الذي حققه نوح عليه السلام من التوكل؛ بحيث إنه صار لا يبالي بما يُكاد به له- مهما عَظُم- قد تحقق أيضاً للأنبياء الآخرين- عليهم السلام- وانظر -للمثال على ذلك- ما قصه الله تعالى عن نبيه هود-عليه السلام-؛ في قوله سبحانه: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ هود: ٥٤ ـ ٥٦ فأعلن لهم أنه لا يبالي بهم، ولا يبالي بآلهتهم كلها، ولا يبالي بكيدهم؛ لأنه متوكلٌ على الله، ومن توكل على الله كفاه؛ قال الطبري:"يقول: فاحتالوا أنتم جميعًا وآلهتكم في ضري ومكروهي؛ (ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ)، يقول: ثم لا تؤخرون ذلك، فانظروا هل تنالونني أنتم وهم بما زعمتم أن آلهتكم نالتني به من السوء؟"[٣]؛ (تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ)؛ قال الطبري:"يقول: إني على الله الذي هو مالكي ومالككم، والقيِّم على جميع خلقه، توكلت من أن تصيبوني، أنتم وغيركم من الخلق بسوء، فإنه ليس من شيء يدب على الأرض، إلا والله مالكه، وهو في قبضته وسلطانه. ذليلٌ له خاضعٌ"[٤].

فهذه سنة الأنبياء -عليهم السلام- في تحقيقهم التوكل، وفي جزمهم القاطع، وثقتهم التامة؛ بمن توكلوا عليه أن يرد عنهم كل سوء.

إن التوكل الصحيح يخفف وطأة معارضة الحق الذي يفعله أعداء الأنبياء عليهم؛ فإن معارضة الجهلة للحق مع وضوحه؛ تحزن القلب؛ ولكن صدق التوكل يدفع ذلك الحزن؛ كما هو

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود٤/١٦٤.

(٢) تفسير الطبري١٥/١٥٢.

(٣) المرجع السابق١٥/٣٦١.

(٤) المرجع السابق١٥/٣٦٣.

ظاهر من قول الله تعالى لرسوله-ﷺ-:﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ التوبة: ١٢٩؛ قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فإن تولى يا محمد هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك، فأدبروا عنك، ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله، وما دعوتهم إليه من النور والهدى، فقل: (حَسْبِىَ ٱللَّهُ) يكفيني ربي؛ (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) لا معبود سواه، (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) وبه وثقت، وعلى عونه اتكلت، وإليه وإلى نصره استندت، فإنه ناصري ومعيني على من خالفني وتولى عني منكم، ومن غيركم من الناس"[1]؛ فهذا يبين أن صحة التوكل تنجي من الهم والغم.

وبهذا يتبين أن التوكل تحصل به النجاة، وأنه قوي الأثر في تحقيقها؛ وأنه من أقوى الأسلحة التي تواجه بها المهالك والأخطار، فمن أتقنه وأتمه؛ حصلت له النجاة بتمامها، ومن أخلّ في شيء منه فقد لا تكمل نجاته، لكن ليس لعدم فاعليته، بل لعدم إكماله وإحكامه من قِبَل العبد؛ وإلا فإن الأنبياء لما أكملوه وأتقنوه؛ حصل لهم من اندفاع الشرور ما لا يحصل مثله لغيرهم.

---

(١) المرجع السابق١٤/٥٨٧.

١٢- الجهاد في سبيل الله

مفهوم الجهاد في القرآن:

الجهاد؛ الطاقة، والمشقة؛ مأخوذ من الجَهد والجُهد؛ فهو بالفتح: المشقة؛ وبالضم: بذل الطاقة والوسع[١]؛ تقول: هذا جهدي؛ أي: طاقتي[٢]؛ وتقول: جهده الأمر، والمرض؛ أي: شق عليه[٣]. وقيل: هما لغتان[٤].

أما الجهاد شرعاً؛ فهو: **بذل الجهد في قتال الكفار**[٥]، ويتوسع فيه؛ فيطلق على مجاهدة النفس على العلم والعمل، ومجاهدة الشيطان؛ بدفع ما يلقيه من الشهوات والشبهات، ومجاهدة الفساق؛ بأمرهم بالمعروف؛ ونهيهم عن المنكر[٦]، ويطلق على الجهاد بالمال، والبيان[٧]. وبالجملة؛ فكل من أتعب نفسه في ذات الله فقد جاهد في سبيل الله[٨]. لكن **الجهاد عند الإطلاق** في القرآن والسنة؛ **فالمراد به:قتال الكفار خاصة**[٩]؛ وكذا سبيل الله؛ فالمراد به عند الإطلاق الغزو[١٠].

---

(١) انظر: المفردات للراغب؛مادة(جهد)، ولسان العرب؛مادة(جهد).

(٢) انظر: تهذيب اللغة؛ مادة(جهد).

(٣) انظر:المصباح المنير؛ مادة(جهد).

(٤) انظر: النهاية لابن الأثير؛مادة(جهد)، ولسان العرب؛مادة(جهد).

(٥) انظر: فتح الباري لابن حجر٦/٣، وشرح الزرقاني على موطأ مالك٣/٣.

(٦) انظر: المرجعين السابقين.

(٧) انظر: منهاج السنة النبوية٨/١٦٢، وزاد المعاد٣/٦٢، والشرح الممتع٨/١١.

(٨) انظر: المقدمات الممهدات لابن رشد(الجد)١/٣٤٢.

(٩) المطلع على أبواب المقنع ص٢٠٩. وانظر: المقدمات الممهدات١/٣٤٢.

(١٠) انظر:المحلى٦/١٥١، والمغني٧/٣٢٦، وفتح الباري٣/٣٣٢، ومجلة البحوث العلمية١/٧٨، و٢/٢٩.

ثم إن القرآن الكريم قد بيّن أن قتال الكفار على نوعين:

النوع الأول: جهاد الدفع؛ وذلك عندما يكونون هم البادئين بالقتال؛ وهذا قد أشار الله تعالى إليه في قوله سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ البقرة: ١٩٠؛ وقد مرت مرحلة في بداية الإسلام لم يُشرع إلا هذا النوع من الجهاد[١].

النوع الثاني: جهاد الطلب؛ وهو أن يقاتل الكفار ليسلموا، أو يدفعوا الجزية؛ وهذا قد أشار إليه القرآن في قول الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ البقرة: ١٩٣؛ وفي قوله سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ الأنفال: ٣٩. قال ابن جرير الطبري:" قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ يَكُونَ شِرْكٌ وَلاَ يُعْبَدُ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ"[٢]، وعن قول الله سبحانه في الآية التي قبلها:(حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) قال: "يعني: حتى لا يكون شركٌ بالله، وحتى لا يُعبد دونه أحدٌ، وتضمحلَّ عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكونَ العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان"[٣]، وذكر النبي ﷺ نفس هذا النوع من الجهاد في حديث ابن عمر –المتفق عليه– حيث قال النبي ﷺ:«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ؛ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[٤].

---

(١) انظر: زاد المعاد٣/٦٢.

(٢) تفسير الطبري١٣/٥٣٧.

(٣) المرجع السابق٣/٥٧٠.

(٤) أخرجه البخاري١/١٢حديث٢٥؛ كتاب الإيمان؛ باب"فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم".ومسلم١/٥٣ حديث٢٢؛كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

بيان القرآن تحقق النجاة بالجهاد:

لقد بيّن القرآن فضائل كثيرة للجهاد؛ ومما بينه من فضائله آيات بينت أنه تحقق به النجاة؛ وقد ذكر الله تعالى ذلك بلفظ النجاة في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ الصف: ١٠ – ١٢؛ قال الجصاص:" أخبر أن النجاة من عذابه إنما هي بالإيمان باللّه ورسوله؛ وبالجهاد في سبيله بالنفس والمال"[1]، وأفاد السعدي أن هذه وصية ودلالة وإرشاد؛ من أرحم الراحمين؛ لعباده المؤمنين؛ لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب؛ يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم؛ أتى فيه بأداة العرض:(هَلۡ أَدُلُّكُمۡ؟)؛ الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال:(تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ)؛ ومن المعلوم أن الإيمان التام؛ يستلزم أعمال الجوارح، ومن أجَلِّ أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله؛ فلهذا قال:(وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ)؛ بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم، لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك ولو كان كريها للنفوس شاقا عليها، فإنه (ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)، ففيه الفوز بثواب الله، والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال:(يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ)، وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر[2]. وقال الزمخشري –في قوله:(إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ) أي:"ما ذكر من الإيمان والجهاد؛ خَيْرٌ لَكُمْ من أموالكم وأنفسكم... وإذا

---

(١) أحكام القرآن ٤/٣١٣.

(٢) انظر: تفسير السعدي ص٨٦٠.

علمتم ذلك واعتقدتموه؛ أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم، فتخلصون وتفلحون"[(١)].

وهناك آيتان دلتا على تحقق النجاة بالجهاد في سبيل الله، إحداهما دلت على أن الجهاد أفضل مما يتفاخر به المتفاخرون؛ وهي قول الله سبحانه: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ التوبة: ١٩ ـ ٢٠؛ قال أبو حيان:"هذه الخصال أعظم درجات البشرية. و{أَعْظَمُ} -هنا- يسوغ أن تبقى على بابها من التفضيل، ويكون ذلك على تقدير اعتقاد المشركين بأن في سقايتهم وعمارتهم فضيلة، فخوطبوا على اعتقادهم، أو يكون التقدير أعظم درجة من الذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا"[(٢)]؛ وقال السعدي:"لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه؛ وسقاية الحاج؛ على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال:{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ}، فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة؛ لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال، وتزكو الخصال؛ وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل. وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالا صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد؛ فلذلك قال:{لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ}؛ ثم صرح بالفضل فقال:{ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ } بالنفقة في الجهاد، وتجهيز

---

(١) الكشاف٤/٥٢٧.

(٢) البحر المحيط٥/٣٨٩.

الغزاة، {وَأَنفُسِهِمْ} بالخروج بالنفس، {أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} أي:لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم [(١)]. وقال الطبري: {هُمُ الْفَائِزُونَ} بالجنة، الناجون من النار"[(٢)]، وقال ابن عاشور: {وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} فيه مبالغة في بيان عظم فوزهم؛ حتى إن فوز غيرهم بالنسبة إلى فوزهم يعد كالمعدوم. والإتيان باسم الإشارة للتنبيه على أنهم استحقوا الفوز لأجل تلك الأوصاف التي ميزتهم: وهي الإيمان، والهجرة، والجهاد بالأموال والأنفس[(٣)].

وقد جاء في حديث النعمان بن بشير[(٤)] -ﷺ- سبب نزولها؛ حيث قال-ﷺ-: "كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ:الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ! وَقَالَ: لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ-. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...} الآيَةَ إِلَى آخِرِهَا"[(٥)].

وآية ثالثة بيّنت تحقق النجاة بالجهاد؛ بلفظٍ آخر، وهي قول الله تعالى-بعدما ذم المتخلفين عن الجهاد-:﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ

---

(١) انظر: تفسير السعدي ص٣٣١

(٢) تفسير الطبري١٤/١٧٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير١٠/٥٢.

(٤) النعمان بن بشير(٢-٦٥هـ)؛ بن سعد بن ثعلبة؛ (أبو عبد الله)؛ الأمير، العالِم؛ خزرجي، صحابي أنصاري مشهور، أول مولود في الإسلام للأنصار بعد الهجرة، استعمله معاوية-ﷺ-على الكوفة، ثم خرج إلى الشام وسكنها، وولي حمص لابن الزبير؛ فتمرد عليه أهلها. وكان من أخطب الناس.[انظر:مشاهير علماء الأمصار لابن حبان ص ٨٧، وسير أعلام النبلاء٣/٤١١، والإصابة٦/٤٤٠، والأعلام٨/٣٦].

(٥) أخرجه مسلم٣/١٤٩٩حديث١٨٧٩؛ كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ التوبة: ٨٨؛ بلفظ الفلاح؛ الدال على تحقق النجاة، فهو أولاً ذم المتخلفين[١]، وبيّن أنهم لأجل الطبع على قلوبهم لا يفقهون ولا يتدبرون ولا يتفهمون ما في الجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلف من الشقاء والضلال[٢]، ثم بيّن في الآية المذكورة أن من لم يُطبع على قلوبهم يجاهدون بأموالهم، وأنفسهم-لفقههم وفهمهم الفهم الصحيح-؛ ثم بيّن تحقق النجاة لهم بقوله:{وأولئك لهم الخيرات} "والخيرات:جمع خيرة وهو المستحسن من كل شيء، فيتناول محاسن الدنيا والآخرة لعموم اللفظ"[٣]، وبقوله:{وأولئك هم المفلحون}، وقد سبق أن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب[٤]، وبقوله في الآية التي تليها:﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ التوبة: ٨٩؛ فقوله:{الفوز العظيم} يدل على معنى النجاة؛ قال السمرقندي:"{الفوز العظيم} يعني: النجاة الوافرة، والثواب الجزيل"[٥].

فهذه الثمرة العظيمة –وهي النجاة الوافرة- تتحقق بالجهاد. وهذه الآيات الثلاث تواردت على هذا المعنى، فالخير كل الخير فيما يُعقب النجاة، والشر كل الشر فيما عقباه الخسار والهلاك.

---

(١) وذلك في قوله سبحانه في الآيتين قبلها:[وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَأْذَنَكَ أُولُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٨٦) رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧)[التوبة].

(٢) انظر: البحر المحيط٥/٤٨٠.

(٣) المرجع السابق، وانظر:اللباب١٠/١٦٧.

(٤) انظر: هذه الرسالة، فصل: ألفاظ النجاة، عند الكلام على لفظ الفلاح؛ ص٨٥.

(٥) بحر العلوم٢/٨٠.

١٣- الصبر

مفهوم الصبر:

"الصبر:قوة مقاومة الأهوال والآلام الحسية والعقلية"[١]، وهو"نقيض الجزع"[٢]. وأصل الصبر:الحَبْس[٣]، ومنه سمي الصوم: صبراً؛ لما فيه من حَبْس النَّفس عن الطعام والشَّراب والنِّكاح[٤].

وعُبِّر عنه بعبارات أخرى؛ فقيل:"حَبس النفس عن الجزع"[٥]، وقيل:"ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله"[٦]، وقريباً منه قولهم:" كتمان الشكوى في تحمل الأذى بالبلوى"[٧]، وقيل:" حبس النفس عن إجابة داعي الهوى"[٨]، وقيل:"تجرع مرارة الامتناع من المشتهي إلى الوقت الذي ينبغي فيه تعاطيه"[٩]، وقيل:"ثبات باعث العقل والدين؛ في مقابلة باعث الهوى والشهوة"[١٠]، وقريباً من هذا التعريف قول بعضهم:"حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه"[١١]. والتصبر: "تكلف الصبر"[١٢].

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف١/٤٤٧.

(٢) كتاب العين؛مادة(صبر).

(٣) انظر: غريب الحديث لابن سلام١/٢٥٤. وتاج العروس؛ مادة(صبر).

(٤) انظر: النهاية لابن الأثير؛مادة(صبر). وتاج العروس؛ مادة(صبر).

(٥) الصحاح؛ مادة(صبر).

(٦) التوقيف على مهمات التعاريف١/٤٤٧.

(٧) طريق الهجرتين ص٣٩٨.

(٨) عدة الصابرين ص ١١٢، وانظر: روضة المحبين ص ٤٨٠.

(٩) التوقيف على مهمات التعاريف١/٤٤٧.

(١٠) عدة الصابرين ص١٩.

(١١) المفردات للراغب؛مادة(صبر).

(١٢) انظر: الصحاح؛ مادة(صبر)، ولسان العرب؛ مادة(صبر)، وتاج العروس؛مادة(صبر).

والصبر يكون على أحكام الله الكونية، والشرعية[١]، الكونية: وهي الأقدار المؤلمة؛ فلا يجزع، ولا يشكو لغير الله؛ والشرعية: بتطبيق الأمر والنهي؛ الأمر يمتثله، والنهي يبتعد عنه؛ فهو قسمان، وإن شئت قلت ثلاثة أقسام: صبر علىَ طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة [٢].

المراد بالصبر في القرآن، وأنواع النجاة المتحققة به:

القرآن قد ذكر أقسام الصبر الثلاثة؛ وإذا أُمر بالصبر في القرآن "فالظاهر أن المراد الأمر بما يعم أقسام الصبر الثلاثة"[٣]؛ وهناك آياتٌ كثيرة في القرآن ذكرت الصبر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعا"[٤]؛ إما أمراً به، أو مدحاً لأهله، أو بياناً لمنزلته؛ والمناسب من تلك الجوانب للدراسة هنا؛ هو ما ذُكر من تحقق النجاة به؛ وقد ورد ذلك في آياتٍ كثيرة؛ منها ما بينه الله تعالى من أنه مما **تتحقق به النجاة من كيد الأعداء**؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٢٠؛ قال ابن كثير:"يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى"[٥]، وأفاد الرازي أن الظاهر شمول الأمر بالصبر هنا لأقسام الصبر الثلاثة[٦]. فكيدهم لا يضر من صبر؛ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ تعليلٌ لذلك؛ فلأنه بما يعملون محيط؛ فهو يعد لكل كيد ما يبطله[٧]، وقد وعد من حقق الصبر والتقوى بإبطال ما يكيده به الفجار.

---

(١) طريق الهجرتين ص٤٠٧.

(٢) انظر: طريق الهجرتين ص٤٠٠، والقول المفيد لابن عثيمين٢/١١٠.

(٣) روح المعاني٢/٣٨٤.

(٤) مجموع الفتاوى١٠/٣٩.

وقد ورد ذكر الصبر في القرآن مائة وثلاث مرات.

(٥) تفسير ابن كثير٢/١٠٩.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب٣/٣٢٣.

(٧) انظر: نظم الدرر٢/١٤٢.

فبالصبر يتحقق للصالحين النجاة من الأذى وتسلط الأعداء؛ قال الله تعالى- مخاطباً نبيه، -ﷺ-: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الأنعام: ٣٤؛ قال أبو حيان:"أي فصبروا على تكذيبهم، والمعنى فتأسّ بهم في الصبر على التكذيب والأذى؛ حتى يأتيك النصر والظفر كما أتاهم"(١)، فالنصر نتيجة الصبر؛ وقال القرطبي:" قوله تعالى:{فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا } أي فاصبر كما صبروا. {وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا}؛ أي: فسيأتيك ما وعدت به"(٢)؛ فالآية تشير إلى أن النصر يجيء نتيجة للصبر(٣)، وهذا ما بيّنه النبي-ﷺ-في حديث ابن عباس-رضي الله عنهما- حين قال له:"وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"(٤).

إن النصر مع الصبر ليس خاصاً بالأنبياء-عليهم السلام- بل إن هذا الحكم الرباني الكوني يحصل لأتباعهم؛ وهذا ما بيّنه الله تعالى وهو يبين ما حصل للمؤمنين من بني إسرائيل، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ الأعراف: ١٣٧؛ "كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل هي قوله فيهم: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ القصص: ٥؛ فهذه هي الكلمة الحسنى عليهم التي أتمها لهم(٥) "سماها حسنى: لأنها كانت على وفق ما يحبون"(٦)، فإنه سبحانه

---

(١) البحر المحيط٤/٤٩٠.

(٢) تفسير القرطبي٦/٤١٧.

(٣) انظر:البحر المحيط٥/١٠٩.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسند ابن عباس من مسنده١/٣٠٨ حديث: ٢٨٠٤. قال شعيب الأرناؤوط -في تعليقه على المسند-:[صحيح].

(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان١/٤١٢، وتفسير الطبري١٣/٧٧، وتفسير السمعاني٢/٢٠٩.

(٦) تفسير السمعاني٢/٢١٠.

أتمّ لهم مضمون هذه الكلمة؛ حين حقق لهم ما وعدهم بتمامه؛ بتمكينهم في الأرض، ونصره إياهم على عدوهم فرعون[١]؛ وبيّن الله في الآية أن ما حصل لهم من النجاة من عدوهم، وإتمام الكلمة الحسنى عليهم كان بسبب صبرهم؛ وذلك في قوله: { بِمَا صَبَرُواْ }؛ قال الزمخشري: أي:"بسبب صبرهم"[٢].. وقال الخازن:"يعني: إنما حصل لهم ذلك التمام -وهو ما أنعم الله تعالى به عليهم من إنجاز وعده لهم- بسبب صبرهم على دينه وأذى فرعون لهم"[٣]، قال الزمخشري:"وحسبك به حاثاً على الصبر، ودالا على أنّ من قابل البلاء بالجزع؛ وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر؛ ضمن الله له الفرج"[٤].

(١) انظر:تفسير الطبري١٣/٧٧

(٢) الكشاف٢/١٤٩. وانظر: مفاتيح الغيب١٤/١٨١، وتفسير البيضاوي٣/٥٤، واللباب٩/٢٩٠.

(٣) تفسير الخازن٢/٢٤٢

(٤) الكشاف٢/١٤٩.

النجاة في الآخرة سببها الصبر:

إن النجاة في الدنيا نعمة عظيمة، لا يقدر قدرها إلا من عاش الابتلاء، ولكن النجاة في الآخرة أعظم، والصبر من أسباب حصولها؛ وفي الآيات السابقة ما يشير إلى شيء من ذلك؛ ولكن هناك آياتٍ صريحة في بيان أن الصبر سبب نجاة من ينجو في الآخرة، وسبب دخوله الجنة والنجاة من النار؛ قال الله تعالى في شأن الأبرار الناجين من أهوال يوم القيامة: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ الإنسان: ١١ – ١٢؛ { وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ }؛ "أي بسبب صبرهم"(١)؛ قال بعضهم:"{بِمَا صَبَرُوا۟} على الفقر في الدنيا"(٢)، وقال بعضهم:"{بِمَا صَبَرُوا۟} على طاعة الله، وعن معصيته"(٣)، قال الشوكاني:"الأولى حمل الآية على كل شيء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه"(٤)؛ وكذلك السعدي رأى أن الصبر في الآية يُراد به جميع أنواع الصبر؛ فقال:"{ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ } على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلمة، فلم يتسخطوها"(٥).

إن الله تعالى قد بيّن أنه يخاطب أهل النار فيبيِّن لهم أن نجاة المؤمنين من النار، ودخولهم الجنة إنما كان بسبب الصبر الذي صبروه؛ قال الله تعالى مبيناً مخاطبته أهل النار: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ المؤمنون: ١٠٩ - ١١٠؛ ثم بيّن لهم نجاة أولئك المستهزأ بهم، وبيّن سبب ذلك؛ في قوله: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ المؤمنون: ١١١؛ قال السمرقندي:"{ بِمَا صَبَرُوٓا۟ } يعني بصبرهم على

---

(١) فتح القدير٥/٤٩٠.

(٢) انظر:بحر العلوم٣/٥٠٥.

(٣) انظر: الوجيز للواحدي ص١١٥٨.

(٤) فتح القدير٥/٤٩٠.

(٥) تفسير السعدي ص ٩٠١.

الأذى، وعلى أمر الله تعالى. {أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ} يعني: الناجون"[1]. وأي نجاة أعظم من النجاة التي أُنعِم عليهم بها، وأي سعادة فوق السعادة التي تُفُضِل عليهم بها؛ والصبر هو السبب لذلك؛ كما بينه هذه الآية.

إن الصبر سبب عظيم من أسباب النجاة، فليربي المسلم نفسه عليه، فإن جزاءه عظيم لا يمكن حسابه وعدُه؛ كما قال تعالى:"﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الزمر:١٠. وقد قرأت في هذا الموضوع أحد فضائله، وهي تحقق النجاة به-بإذن الله-.

(١) بحر العلوم٢/٤٩١.

١٤- تقديم الخوف من الله على الخوف من غيره:

بيّن القرآن أن هذا العمل من أعمال القلوب سبب-بإذن الله- لتحقق النجاة.

إن تقديم الخوف من الله على الخوف من غيره تتحقق به النجاة من كيد أولياء الشيطان؛ مهما توهم الإنسان قوتهم؛ فالشيطان يهوِّلُ من قوة أوليائه في صدور الناس ليتوهموا أن قوتهم عظيمة لا يمكن مواجهتها؛ كما بيّن الله ذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥؛ قرأها ابن عباس-رضي الله عنهما-:"إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه"[(١)]، وهذا المعنى هو الذي ذكره إبراهيم النخعي في تفسير الآية؛ حيث قال:"يخوف الناس أولياءه"[(٢)]، وقال السدي:"يعظم أولياءه في صدوركم فتخافونهم"[(٣)]، وقال محمد بن إسحاق: "أي:يرهبكم بأوليائه"[(٤)]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معنى الآية:"أي يخوفكم أولياؤه بما يقذف في قلوبكم من الوسوسة المرعبة؛ كشيطان الإنس الذي يخوف من العدو فيرجف ويخذل"[(٥)]. فالآية عرَّفت المؤمنين أن "من كيد عدو الله تعالى: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم، ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر؛ وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان"[(٦)].

ومثلما علَّم الله المؤمنين هذه الحقيقة؛ فقد بيّن لهم سبباً قوياً ينجيهم منها-بإذنه- وهو قوله في الآية:{ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ }؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"أمرهم بخوفه- وخوفه يوجب فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، والاستغفار من الذنوب- وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداء"[(٧)]، وقال ابن القيم-في معنى الآية-:"فلا تخافوهم وأفردوني بالمخافة أكفكم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٣/٨٢٠.

(٢) أخرجه ابن المنذر في تفسيره٢/٥٠٦.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره٧/٤١٧، وابن أبي حاتم في تفسيره٣/٨٢٠.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره٧/٤١٦، وابن المنذر في تفسيره٢/٥٠٧، وابن أبي حاتم في تفسيره٣/٨٢١.

(٥) مجموع الفتاوى١٧/٥٢٤.

(٦) إغاثة اللهفان١/١١٠.

(٧) مجموع الفتاوى٨/١٦٤.

إياهم"[١]. فبتقديم خوف الله على الخوف من غيره، والجزم بأن أزمَّة الأمور كلها بيد الله، وأن أحداً لا يستطيع أن يضر أحداً إلا بإذن الله، تحصل راحة القلب من خوف غير الله، وتحصل النجاة من كيد أعداء الله.

إن الأنبياء -عليهم السلام- قد تحققوا من ذلك غاية التحقق، فهانت عليهم كل قوة بيد أعدائهم، وصار كل خوفهم من الله وحده؛ فصارت لهم العاقبة في الدنيا وفي الآخرة؛ قال الله تعالى -عن موسى-عليه السلام-: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ الشعراء: ٦١ ـ ٦٥؛ لقد خاف أصحاب موسى-عليه السلام- فالبحر أمامهم، والعدو خلفهم؛ ولكن موسى-عليه السلام- لم يتسلل إلى قلبه أدنى خوفٍ، لقد كانت ثقته بالله عظيمة؛ فحصل الأمر المعجز، وتحققت النجاة الكاملة لموسى-عليه السلام- ومن معه من قومه.

وليس هذا خاصاً بموسى-عليه السلام-، بل كل الأنبياء كذلك؛ كما بيّن الله ذلك في كتابه بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ إبراهيم: ١٣ ـ ١٤؛ فأعداء الرسل؛ غرتهم قوتهم المادية التي معهم؛ ولكن الرسل-عليهم السلام-كان كل خوفهم من ربهم؛ فكانت لهم العاقبة، وهكذا كل من كان خوفه إنما هو من مقام ربه سبحانه؛ ولهذا قال الله سبحانه: {ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ }؛ قال الطبري-في تفسير الآية-:"يقول جل ثناؤه: هكذا فِعْلي لمن خاف مَقامَه بين يديّ، وخاف وعيدي؛ فاتَّقاني بطاعته، وتجنَّب سُخطي، أنصُرْه على ما أراد به سُوءًا، وبَغَاه مكروهًا من أعدائي، أهلك عدوّه وأخْزيه، وأورثه أرضَه وديارَه"[٢].

---

(١) بدائع الفوائد٢/٤٦٣.

(٢) تفسير الطبري١٦/٥٤٢.

وبهذا يتبين أن تقديم الإنسان خوف الله على خوف غيره؛ سبب لنجاته في الدنيا والآخرة.

الأسباب الربانية؛ (وفيه ما يلي):

- تمهيد

١. رحمة الله.

٢. قدرة الله، وقوته.

٣. وعد الله، ومشيئته.

٤. سبق الحسنى من الله.

٥. فضل الله ونعمته.

تمهيد:

إن الأسباب البشرية للنجاة؛ لا يمكن حصول المقصود منها إلا إذا أراد الله ذلك[١]، كما أنه لا يمكن أن يوفق الإنسان إلى القيام بها إلا بهداية الله له إليها؛ ولهذا السبب صارت آية الفاتحة بطلب الهداية؛ في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ الفاتحة: ٦؛ من أعظم الأدعية؛ أفاد ابن تيمية أن الهدى في الآية عامٌ، وقال:"ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه؛ ولهذا أمر به في كل صلاة لفرط الحاجة إليه"[٢]، وقال:"ليس كما يقوله طائفة من المفسرين: إنه قد هداه؛ فلماذا يسأل الهدى؟ وأن المراد بسؤال الهدى: الثبات، أو مزيد الهداية؛ بل العبد محتاج إلى أن يعلمه ربه ما يفعله من تفاصيل أحواله، وإلى ما يتولد من تفاصيل الأمور في كل يوم، وإلى أن يلهم أن يعمل ذلك"[٣]؛ ويتبين بهذا أن الإنسان لا يمكن أن يفعل أسباب النجاة إلا إذا هداه الله إليها، وألهمه العمل بها. بل لا يمكن للإنسان أن يشاء عمل تلك الأسباب؛ إلا إذا شاء الله أن يشاء؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ التكوير: ٢٩؛ قال ابن كثير:"أي: ليست المشيئة موكولة إليكم؛ فمن شاء اهتدى،

---

(١) راجع في هذه الرسالة، وفي فصل:أسباب النجاة: التوكل والأسباب المادة؛ ص٤٣٣.

(٢) مجموع الفتاوى٨/٢١٦.

(٣) المرجع السابق١٤/٣٢٠.

ومن شاء ضل؛ بل ذلك كله تابع لمشيئة الله عز وجل رب العالمين"[١]. وقال إسماعيل حقي:"قوله: (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) من إقامة المصدر موقع الزمان؛ أي: إلا وقت أن يشاء الله تلك المشيئة، لأن المشيئة الاختيارية مشيئة حادثة؛ فلا بدلها من محدث؛ فيتوقف حدوثها على أن يشاء محدثها إيجادها[٢]. وقال البقاعي:(وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) مشيئتكم، وإن لم يشأها لم تقدروا على مشيئة، فادعوه مخلصين له الدين يشأ لكم ما يرضيه. ومن تأمل هذه الآية أدنى تأمل علم أن كلام المعتزلة[٣] بعدها في القدر[٤] دليل على أن الإنسان إذا كان له هوىً لا يرده شيء أصلاً[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير٨/٣٤٠.

(٢) انظر: روح البيان١٠/٢٧٤.

(٣) **المعتزلة**: فرقة كلامية؛ أسسها: واصل بن عطاء، كان تلميذا للحسن البصري، فاعتزله؛ فسميت فرقته:المعتزلة؛ وضعوا خمسة أصول يكفِّرون من خالفهم فيها، وانقسموا إلى عشرين فرقة؛ وأصولهم الخمسة؛ هي: **التوحيد**- ويعنون به نفي الصفات، إذ إن إثبات الصفات إثبات قديم مع الله-بزعمهم-، **والعدل**: ويعنون به نفي القدر، **والمنزلة بين المنزلتين**؛أي صاحب الكبيرة؛ ليس مؤمنا ولا كافراً في الدنيا؛ **وإنفاذ الوعيد**- أي صاحب الكبيرة يخلد في النار، **والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**؛ ويضمنونه الخروج بالسيف على السلطان الجائر؛ واختلفوا فيه.[انظر:مقالات الإسلاميين ص٢٧٨، والفصل لابن حزم٤/١٤٦، ومجموع فتاوى ابن تيمية١٣/١٢٦، والملل والنحل للشهرستاني١/٤٢]

(٤) المعتزلة يعتقدون أن الله ألهم النفس الفجور والتقوى معاً؛ لا أنه ألهم الفاجرة فجورها، والمتقية تقواها؛ بل الإنسان عندهم هو الذي يعيِّن ما يريده من الخير أو الشر؛ والله تعالى لم يخلق هذه الإرادة المعينة، بل خلق الإرادة الشاملة للنوعين؛ إرادة تجعله مريداً بالقوة والقبول؛ أي قابلاً لأن يريد هذا، أو هذا؛ لكن كونه مريدا لهذا المعين، وهذا المعين؛ فهذا عندهم ليس مخلوقا لله. وغلطوا في ذلك غلطا فاحشا؛ فإن الله خالق هذا كله، وإرادة النفس لما تريده من الذنوب وفعلها؛ هو من جملة مخلوقات الله تعالى فإن الله خالق كل شيء؛ وهؤلاء القوم الذين جعلوا فعل الإنسان للطاعة ليس فضلاً من الله عليه ونعمة، وفعله للمعصية ليس لخذلان الله له؛ قومٌ قد لبسوا الحق بالباطل. [انظر:مجموع فتاوى ابن تيمية١٤/٢٩٩، و١٨/٢٠٨].

(٥) انظر: نظم الدرر٨/٣٤٥.

ويتبين بما سبق أن الإنسان لا يمكن أن يفعل أسباب النجاة؛ إلا أن يشاء الله، بل حتى لا يمكن أن تتوجه إرادته لفعلها إلا إذا شاء الله لذلك الإنسان أن يشاء فعل تلك الأسباب. ثم إن تلك الأسباب إذا فُعلت لا يمكن أن تؤدي نتائجها إلا بإذن الله.

ثم إن مشيئة الله تعالى تابعة لحكمته البالغة؛ فليست مشيئة مجردة عن الحكمة؛ تخصص بلا مخصص؛ فهذا هو الحق الذي عليه الجمهور من المسلمين وغيرهم؛ فإنهم – مع أنهم يثبتون مشيئة الله وإرادته – يثبتون أيضا حكمته ورحمته؛ بخلاف الأشعرية، والظاهرية[1]، وطائفة من الفقهاء –من أصحاب الأئمة الأربعة–[2].

وبهذا جاء القرآن الكريم؛ فقد ذكر أنواعاً من الأسباب الربانية التي تكون سبباً في نجاة من أراد الله نجاته. ومنها ما يلي:

---

(١) **الظاهرية**: مذهب عمدته الأخذ بظواهر نصوص الكتاب والسنة؛ والإعراض عن التأويل والرأي والقياس؛ ويأخذ بمنهج أهل السنة في العقيدة إجمالاً؛ عِيب على الظاهرية جمودهم في مسائل كان ينبغي لهم عدم الجمود فيها؛ ولكنها قليلة جداً؛ وبعض الناس عابهم بتركهم الآراء التي لا دليل عليها، لكن ذلك ليس عيباً. وكان داود بن علي الأصبهاني–أحد الأئمة المجتهدين– أول من جهر بها، وإليه تنسب، ومن أشهر رجالاتها: الإمام ابن حزم؛ وفي أهل الظاهر جم غفير من أكابر الأئمة وحفاظ الشريعة المتقيدين بنصوص الشريعة. [انظر:مجموع فتاوى ابن تيمية٤/١٩، وإرشاد الفحول١/٢١٥، وأبجد العلوم٢/٤٠٦، والأعلام٢/٣٣٣].

(٢) انظر:درء التعارض٥/٢٠.

١- رحمة الله

رحمة الله؛ من الأسباب الربانية لنجاة من أراد الله نجاته. وقد تواردت آياتٌ كثيرة على إثبات هذا المعنى العظيم؛ ومن ذلك قول الله تعالى عن هودٍ-عليه السلام-﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ الأعراف: ٧٢؛ وفي آية أخرى قال عنه:﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ هود: ٥٨؛ وقال عن صالحٍ-عليه السلام-: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ هود: ٦٦؛ وقال عن شعيب-عليه السلام-:﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ هود: ٩٤، ففي كل هذه الآيات بيانٌ واضح أن نجاتهم حصلت بسبب رحمة الله لهم. ورحمته لهم من وجوه؛ أولها: رحمته حيث هداهم إلى الإيمان؛ الذي هو سبب نجاتهم، وعصمهم من الكفر؛ الذي هو سبب هلاك من عداهم(١)، ثانيها: رحمته بهم بتنجيته إياهم من عذابه الذي نزل بمن عداهم(٢)؛ وذلك لأن الأصل أن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكافر؛ فلما أنجى اللّه المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه(٣)، فهي رحمة زائدة عن رحمته لهم بالهداية. قال القرطبي:"لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى، وإن كانت له أعمال صالحة"(٤). والوجهان محتملان؛ وقد فسرت الآيات بهما(٥)؛ وقال أبو حيان:"الظاهر تعلق برحمة منا بقوله: نجينا أي، نجيناهم بمجرد رحمة من اللّه لحقتهم، لا بأعمالهم الصالحة. أو كنى بالرحمة عن أعمالهم الصالحة، إذ توفيقهم لها إنما هو بسبب رحمته تعالى إياهم"(٦)؛ وكأن السعدي جعل الرحمة التي حصلت بها نجاتهم تشمل الوجهين معاً؛ فرحمهم أولاً؛ فآمنوا؛ فكان إيمانهم سبب نجاتهم؛ ورحمهم-لأنهم مؤمنين-

---

(١) انظر: الوجيز ص٥٢٤. وتفسير السمعاني٢/٤٣٧. والبحر المحيط٥/٩٠.

(٢) انظر: المحرر الوجيز٣/٢٠٠، و٢١٨.

(٣) انظر: تفسير الخازن٢/٤٩٠.

(٤) تفسير القرطبي٩/٥٤.

(٥) انظر: زاد المسير٤/١٢٠. واللباب في علوم الكتاب١٠/٥١٠ و٥٥٥.

(٦) البحر المحيط٦/١٧٠.

حين أنزل بأسه بالكافرين؛ فأنقذهم من هذا العذاب؛ حيث أفاد أنه رحمهم حين هداهم للإيمان، ثم أنجاهم برحمته[1].

إن نوحاً-عليه السلام- قد بيّن لابنه-الكافر- أن رحمة الله؛ هي فقط التي تحصل بها النجاة من عذابه إذا نزل؛ حين قال له ما ذكره الله عنه بقوله: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ هود: ٤٣؛ فرحمة الله، هي التي ينتج عنها النجاة من عذابه.

وهذا المعنى الذي تواردت الآيات في تأكيده من خلال ما سرده القرآن من قصص الأنبياء-عليهم السلام- قد بيّنه الله تعالى أيضاً بآية تزيد الأمر وضوحاً وجلاء؛ فقال سبحانه- وهو يذكّر الناس نعمته بتيسير السفن التي تحملهم وذريتهم على الماء: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ يس: ٤٣ ـ ٤٤؛ فرحمة الله هي فقط التي يحصل بها إنقاذهم من الغرق، وحمايتهم منه.

إن أتباع الأنبياء-عليهم السلام- حينما يستوعبون توجيهات الأنبياء لهم؛ فإنهم يتحققون من هذا المعنى، ويصير عقيدة راسخة في قلوبهم، يعلمون حقاً أن رحمة الله هي التي تتحقق بها النجاة من المضائق والخطوب؛ وهذا ما كشفه القرآن في قصة قوم موسى-عليه السلام- المؤمنين الصابرين، الذين جعلهم الله أئمة لما صبروا وكانوا بآيته يوقنون؛ فقد ذكر الله قول موسى-عليه السلام- لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ يونس: ٨٤، ثم بيّن-سبحانه- جوابهم؛ الذي يتضح فيه بشكلٍ جلي؛ تحققهم أن نجاتهم لا تحصل إلا برحمة الله؛ فقالوا ما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ يونس: ٨٥ ـ ٨٦.

فالقرآن قد بيّن في الآيات السابقة الذكر أن نجاة الدنيا تحصل برحمة الله، وبيّن القرآن أن نجاة الآخرة إنما تحصل برحمة الله، بيّن الله ذلك بما ذكره من دعاء حملة العرش ومن حوله للمؤمنين؛ في قوله عنهم: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ غافر: ٩؛ قال الشربيني في قوله: {وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ} أي: يوم

(١) تفسير السعدي ص٢٩٤

تدخل فريقاً الجنة وفريقاً النار المسببة عن السيئات؛ وهو يوم القيامة، {فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ} أي: الرحمة الكاملة التي لا يستحق غيرها معها أن يسمى رحمة، فإن تمام النعيم لا يكون إلا بها؛ ولذلك قالوا: {وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ }[١]؛ قال السمرقندي:"النجاة الوافرة"[٢]، وقال القرطبي:"النجاة الكبيرة"[٣].

إن كان القرآن قد بيّن أن رحمة الله سبب النجاة، فإن السنة النبوية قد قررت هذا المعنى أيضاً بأوضح بيان؛ حيث قال النبي -ﷺ-:" لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ! قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ وَلَا أَنَا! إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ"[٤].

فرحمة الله هي أعظم أسباب النجاة في الدنيا والآخرة؛ فليعتصم بها أولو الألباب.

---

(١) انظر: السراج المنير٣/٣٧٨.

(٢) بحر العلوم٣/١٩١.

(٣) تفسير القرطبي١٥/٢٩٦.

(٤) أخرجه البخاري٨/١٢٢حديث ٦٤٦٣؛ كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل. وأخرجه بنحوه؛ مسلم ٤/٢١٦٩ حديث ٢٨١٦؛ كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى.

٢ـ قدرة الله، وقوته:

قدرة الله وقوته من الأسباب الربانية التي تحصل بها النجاة؛ والمتأمل للقرآن يجد بيانه لذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ الأحزاب: ٢٥؛ بيّن سبحانه أنه ردّ الكفار عن أن يصل أذاهم إلى المؤمنين في قوله: { وَرَدَّ[1] ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ }-، وبيّن أنه ردهم بقوته في قوله: {وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا }؛ قال ابن كثير: "أي: بحوله وقوته، ردَّهم خائبين"[2]. فالآية تدل على أن نجاة المؤمنين من أذى الكفار في غزوة الأحزاب[3]؛ كان بسبب قوة الله –سبحانه– فهي التي رد بها أولئك الكفار.

وقال سبحانه: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التحريم: ٨؛ فالمؤمنون يقولون ذلك؛ حين يخمد وينطفئ نور المنافقين[4]، فيقولون ذلك إشفاقا على نورهم[5]، فهم قد تحققوا أن نجاتهم من انطفاء نورهم؛ لا تكون إلا بقدرة الله تعالى؛ فتوسلوا إلى الله بها أن ينجيهم من ذلك؛ قال الطبري: قوله تعالى: {إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ }؛ يقول: إنك على إتمام نورنا لنا، وغفران ذنوبنا، وغير ذلك من الأشياء؛ ذو قدرة"[6].

---

(١) والرد أحد الألفاظ الدالة على النجاة. [انظر في هذه الرسالة: فصل: ألفاظ النجاة؛ ص١١٤].

(٢) تفسير ابن كثير٦/٣٩٦.

(٣) الأحزاب: تَجَمُّعٌ ضمَّ كفار قريش وغطفان؛ ويهود بني النضير، وكان اليهود هم الذين سعوا لهذا التجمع، وحرضوا عليه؛ للقضاء على الإسلام؛ فكانت غزوة الأحزاب(الخندق) في شوال من السنة الخامسة للهجرة. وقد ردهم الله بجنودٍ من الملائكة، وريحٍ عاتية أرسلها عليهم. [انظر:السيرة لابن هشام٤/١٧١، والسيرة لابن كثير٣/١٧٨].

(٤) انظر: تفسير السمعاني٥/٤٧٧. وتفسير القرطبي١٨/٢٠١. وتفسير ابن كثير٨/١٧٠ وفتح القدير٥/٣٥٥.

(٥) تفسير السمعاني٥/٤٧٧.

(٦) تفسير الطبري٢٣/٤٩٦.

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ الأنعام: ١٧؛ قال الطبري:" هو القادر على نفعك وضرِّك، وهو على كل شيء يريده قادر، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالآلهة الذليلة المهينة؛ التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها، ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها"(١)؛ فهو بقدرته يدفع عنك الضر، وينجيك منه إذا أراد.

وبهذا يتبين أن قدرة الله، أحد الأسباب الربانية التي تحصل بها النجاة.

(١) تفسير الطبري١١/٢٨٧.

٣- وعد الله ومشيئته:

قد جاء القرآن بإثبات أن من شاء الله نجاته نجّاه؛ فمشيئة الله كانت سبباً في نجاة من نجا، وكذلك وعده؛ قال الله تعالى-في ذكر رسله-:﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ الأنبياء: ٩؛ قال الشنقيطي: صَدَقَ رُسُلَهُ الْوَعْدَ الذي وعدهم إياه؛ فَأَنْجَاهُمْ، وَأَنْجَى مَعَهُمْ مَن شَاءَ أَنْ يُنْجِيَهُ[١]. والملاحظ أن الآية جاءت بصيغة المضارع(وَمَن نَّشَآءُ)، ولم يقل: (ومن شئنا)؛ والسر في ذلك بيّنه ابن عاشور؛ فقال:"الإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى:{ وَمَن نَّشَآءُ }؛ إحتباك[٢]، والتقدير: فأنجيناهم ومن شئنا؛ وننجي رسولنا ومن نشاء منكم"[٣]. فمشيئة الله مثلما كانت سبباً في نجاة المؤمنين الأولين؛ تكون -أيضاً- سبباً في نجاة المؤمنين منكم أيه المخاطبين.

وقال الله تعالى:﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ القصص: ٦١؛ {مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ } لعذاب الله، فهو من أهل النار أحضروها[٤]، قال الحسن:"بئس المتاع متاع انقطع بصاحبه إلى النار"[٥]، بخلاف المؤمن؛ فقد بيّنت الآية أنه ناجٍ من هذا بالوعد الحسن الذي وعده الله إياه.

وبهذا يتبين أن وعد الله، ومشيئته؛ سببان من الأسباب الربانية للنجاة.

---

(١) أضواء البيان٤/١٣٧.

(٢) الاحتباك:"هو أن يُحْذَفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابلة في الأواخر، ويُحْذَفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابلة في الأوائل"[البلاغة العربية لعبدالرحمن بن حسن بن حنبكة الدمشقي٢/٥٤].

(٣) التحرير والتنوير١٧/١٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري١٩/٦٠٤، وتفسير ابن أبي حاتم٩/٢٩٩٩.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٩/٢٩٩٩.

٤- سبق الحسنى من الله:

قد أثبت القرآن أن من سبقت له الحسنى من الله؛ فإنه ينجو بهذا السبب الرباني؛ قال الله تعالى مبيناً ذلك-بعد وصفه النار-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ الأنبياء: ١٠١؛ فـ"كل من سبقت له من الله السعادة من خلقه فهو عن النار مُبعد"(١)، فهي عامة؛ وقيل: المقصود"منْ عُبِد مِن دون الله، وهو لله طائع ولعبادة من يَعبد كاره"(٢) وقد وردت أسباب نزول تدل على أن المراد بها عيسى وعزير-عليهما السلام- والملائكة- عليهم السلام-(٣)، وورد أن المراد عثمان بن عفان-ﷺ-(٤)، وورد آثار أخرى أن المراد عثمان وبقية العشرة المبشرين بالجنة-ﷺ-(٥). وبيّن ابن حزم أن كل الصحابة-ﷺ- داخلون في الآية بنص القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ الحديد: ١٠؛ فقال:"كل من صحب رسول الله-ﷺ- بنية صادقة ولو ساعة؛ فإنه من أهل الجنة، لا يدخل النار لتعذيب؛ فكلهم وعدهم الله الحسنى في قوله:{وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ}؛ وكل من سبقت له الحسنى من الله فهو مبعدٌ عن النار؛ كما بيّن ذلك ربنا في قوله:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ }(٦).

الأقوال السابقة -كما رأيتَ- ذكرت أناساً بأعيانهم قد وُعِدوا الحسنى من الله؛ لكن ذلك ليس تخصيصاً للآية بهم، وكذلك ما ورد في سبب النزول ليس تخصيصاً، فمن ذُكِر داخل في الآية، لا أنها تخصه- على الراجح- قال الآلوسي:"الظاهر أن المراد من الموصول كل من اتصف

---

(١) تفسير الطبري١٨/٥٣٨.

(٢) المرجع السابق١٨/٥٣٨

(٣) انظر الآثار التي أخرجها الطبري في تفسيره١٨/٥٣٨.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١٨/٥٣٨

(٥) أخرجه الثعلبي في تفسيره٦/٣١١، وابن عدي في الكامل٤/٢٤.

(٦) انظر: الفصل٤/١١٦، والمحلى١/٤٤.

بعنوان الصلة؛ وخصوص السبب لا يخصص، وما ذكر في بعض الآثار من تفسيره بعيسى وعزير والملائكة عليهم السلام فهو من الاقتصار على بعض أفراد العام"[١].

وآية أخرى في كتاب الله؛ دلت على أن سبق الحسنى من الله سبب نجاة لصاحبه؛ قال الله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال: ٦٨؛ فهذه الآية نزلت في أسرى بدر حين استقر رأي النبي-ﷺ-فيهم بعد مشاورة أصحابه-ﷺ-على الفداء بالمال، كل أسير بأربعة آلاف درهم، فأنكر الله تعالى ذلك عليه وأنه ما كان له أن يفادي الأسرى[٢]؛ وكان الأصل أن يعذبهم الله على ذلك؛ كما بيّن الله ذلك في الآية السابقة، وكما بيّن النبي-ﷺ-ذلك في قوله: "لو عذبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك"[٣]؛ إلا أن الله تعالى دفع عنهم ذلك العذاب؛ للسابقة التي لهم منه سبحانه؛ والتي ذكرها سبحانه بقوله:{ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ }؛ قال سعيد بن جبير: "سبق لأهل بدر السعادة"[٤]، وقال الحسن:"سبق لأهل بدرٍ أن لا يعذبهم"[٥]، وقال قتادة:"سبق لهم من الله خير"[٦]، وقال مجاهد:"سبق لهم المغفرة"[٧]؛ وكل هذه التفسيرات سوابق حسنى لهم من الله كانت سبباً في نجاتهم من عذابٍ كان سيحصل لولاها.

فليسأل المسلم ربه أن يجعله ممن سبقت لهم منه الحسنى؛ فقد اتضح فيما سبق أنها سبب في النجاة من عذاب الدنيا والآخرة؛ وسبق الحسنى لأحد من الله بِشارة عظيمة؛ أمر الله نبيه-ﷺ-أن يبشر بها المؤمنين؛ فقال سبحانه:﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

---

(١) روح المعاني٩/٩٢.

(٢) أخرج الأحاديث الدالة على القصة المذكورة؛ الواحدي في أسباب النزول ص١٦٠، وأبو عبيد في الأموال ص١٠٥، الأحاديث:٣٠٦-٣١٢، وانظر: النكت والعيون٢/٣٣٢.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره١٤/٧١.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١٤/٦٨، وابن أبي حاتم٥/١٧٣٥.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٧٣٥، وأخرج نحوه الطبري في تفسيره١٤/٦٩.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره١٤/٦٩.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٥/١٧٣٥.

يونس: ٢؛ فقد فسّر ابن عباس-رضي الله عنهما-:{قَدَمَ صِدْقٍ}؛ بقوله:"سبقت لهم السعادة في الذِّكر الأوّل"(١). وقد قيل:"قلوب الأبرار معلقة بالخاتمة؛ يقولون: ليت شعري ماذا يختم لنا به؟ وقلوب المقربين معلقة بالسابقة؛ يقولون: ليت شعري ماذا سبق لنا به؟"(٢)

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٥/١٥.

(٢) قوت القلوب١/٣٨٠.

٥- فضل الله ونعمته:

فضل الله[١] ونعمته[٢] من الأسباب الربانية للنجاة؛ والتي جاء القرآن بإثباتهما.

فقد بين الله في كتابه أن وقاية المتقين من العذاب؛ نجاة عظيمة حصلت لهم بفضل الله عليهم؛ فقال سبحانه: ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الدخان: ٥٦ – ٥٧؛ قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ووقى هؤلاء المتقين ربُهم يومئذٍ عذاب النار؛ تفضلا -يا محمد- من ربك عليهم، وإحسانًا منه عليهم بذلك، ولم يعاقبهم بجرم سلف منهم في الدنيا، ولولا تفضله عليهم بصفحه لهم عن العقوبة لهم على ما سلف منهم من ذلك؛ لم يقهم عذاب الجحيم، ولكن كان ينالهم ويصيبهم ألمه ومكروهه"[٣]؛ ففضل الله- وهو من صفاته الفعلية- سبب من أسباب نجاة من نجا؛ كما أن رحمته — وهي صفة من صفاته الذاتية- سبب للنجاة-.

وكذلك نعمته؛ سببٌ من أسباب النجاة، بيّن الله تعالى ذلك في قوله في قصة لوط -عليه السلام-: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ القمر:٣٤- ٣٥؛ قال الطبري:" يقول: غير آل لوط الذين صدّقوه واتبعوه على دينه؛ فإنا نجيناهم من العذاب الذي عذّبنا به قومه الذين كذبوه، والحاصب الذي حصبناهم به بسحر: بنعمة من عندنا: يقول: نعمة أنعمناها على لوط وآله، وكرامة أكرمناهم بها من عندنا"[٤]، وقال السمرقندي:" معناه: ونجيناهم بالإنعام عليهم"[٥]، وقال الرازي:" أي ذلك الإنجاء كان فضلاً منا"[٦]. ولم يقل: نعمة منا، وإنما قال:{ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا }؛ تنويه بشأن هذه النعمة، فإن (عندنا) أبلغ من(منا)؛ أفاد

---

(١) الفضل:العطاء الكثير، والخير الزائد. والإفضال: الإحسان[انظر:الصحاح؛مادة(فضل)، ومقاييس اللغة؛ مادة(فضل) والعامي الفصيح؛ مادة(فضل)].

(٢) النعمة: المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير[انظر: تاج العروس؛ مادة(ن ع م)].

(٣) تفسير الطبري٢٢/٥٥.

(٤) تفسير الطبري٢٢/٥٩٦.

(٥) بحر العلوم٣/٣٥٤

(٦) مفاتيح الغيب٢٩/٥٣.

ذلك ابن عاشور[١]. فتبين مما سبق أن علة إنجائهم: نعمة الله؛ قال البيضاوي- في قوله سبحانه: {نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا }:أي:" إنعاما منا؛ وهو علة لنجينا"[٢].

وذكر الله تعالى عن أحد أهل الجنة قوله:﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ الصافات: ٥٧؛ أي: من المحضرين[٣] في عذاب الله[٤]، وقد تبيّن له أنه نجا من الإحضار في العذاب؛ بنعمة الله. والنعمة هنا عامة؛ لم تخصص بنعمة معينة، وقد ذكر المفسرون هنا أقوالاً في تحديدها؛ فذكروا: الهداية، والإيمان[٥]، والإسلام[٦]، والثبات عليه[٧]، والعصمة والتوفيق[٨]، والإرشاد للتوحيد[٩]، و"تثبيتي عن أتباعك[١٠]، والتجاوز عني في مخالطتك"[١١]، والظاهر أن هذا من اختلاف التنوع، لا التضاد.

والخلاصة أن نعمة الله سبب رباني من أسباب النجاة؛ ولولا نعمة الله على الناجي لما نجا.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير٢٧/١٩٥.

(٢) تفسير البيضاوي٥/٢٦٨.

(٣) لفظ الإحضار يكثر إطلاقه لغة على الذي يحضر لأجل العقاب، بل إن لفظ:أحضر؛ لا يستعمل مطلقاً إلا في الشر. [انظر: النكت والعيون٥/٥٠، والتحرير والتنوير٢٣/٣٦].

(٤) انظر: تفسير الطبري٢١/٥١، ومعاني القرآن للنحاس٦/٣١.

(٥) انظر: تفسير الطبري٢١/٥١، والنكت والعيون٥/٥٠.

(٦) انظر: معالم التنزيل٧/٤١، وفتح القدير٤/٥٦٤.

(٧) انظر: تفسير السعدي ص٧٠٣.

(٨) انظر: الكشاف٤/٤٥، وفتح القدير٤/٥٦٤.

(٩) انظر: تفسير ابن كثير٧/١٦.

(١٠) وتثبيتي عن متعابعتك؛ يعني: قرينه الذي يخاطبه في الآخرة عندما يطلع عليه فيراه في سواء الجحيم.

(١١) نظم الدرر٦/٣١٣.

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة القصيم
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم القرآن وعلومه

النجاة في ضوء القرآن الكريم

دراسة موضوعية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في القرآن وعلومه

إعـــداد

عبد العزيز بن محمد عبد الرحمن الجربوع

المشـــرف

د . محمد بن عبد الله بن محمد العيدي

الأستاذ المشارك في قسم القرآن وعلومه

الجـــزء الثاني

١٤٣٢ — ١٤٣٣هـ

المبحث الثاني: أسباب النجاة الوهمية

(وأتناول فيه ما يلي):

١. الإيمان والتوبة بعد فوات أوانهما.

٢. الاعتماد على الآلهة المفتراة.

٣. كثرة الأموال والأولاد.

٤. المكر السيئ وإحكام الخطط.

٥. مجرد القوة العسكرية.

٦. مجرد الحذر واتخاذ الحيطة.

٧. ترك الجهاد في سبيل الله.

٨. الدعاء بعد انتهاء وقته.

٩. القرابة من الصالحين.

١٠. استغفار الرسول -ﷺ- لأحدٍ بكذبه عليه.

١١. طاعة الزعماء والعلماء والأصدقاء، والأنظمة والتشريعات؛ في معصية الله.

١ ـ الإيمان والتوبة بعد فوات أوانهما:

إن الإيمان سبب حقيقي للنجاة، وقد سبق ذكره في أسباب النجاة الحقيقية؛ إلا أنه إنما يكون سبباً إذا كان في حينه ووقته، أما بعد فوات وقته فهو ليس سبباً تتحقق به النجاة.

إن الإيمان المنجي؛ هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيماناً بالغيب؛ أما الإيمان الذي يكون عن اضطرار، أو عن مشاهدة؛ فليس إيماناً صحيحاً منجياً[١].

ووقت الإيمان والتوبة يفوت بأمور؛ بينها القرآن؛ ومنها:

فوات وقتهما بنزول العذاب؛ إن الكفار حينما ينزل بهم عذاب الله ونقمته، ويشاهدون نجاة أهل الإيمان؛ يعلنون إيمانهم لتتحقق لهم النجاة، ولكن ذلك لا يجدي شيئاً.هذه هي سنة الله العامة في خلقه، وقد استثني قوم يونس من هذا لسبب لا نعلمه-وقد سبق بيان ذلك[٢]-، والاستثناء يؤكد القاعدة -كما يقال-.

لقد بيّن الله في كتابه عدم تحقق النجاة بذلك الإيمان؛ في قوله سبحانه عن الأقوام السابقين: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ غافر: ٨٤ ـ ٨٥؛ فبرؤيتهم بأس الله انتهت المهلة التي ينفعهم فيها الإيمان؛ قال قتادة:"لما رأوا عذاب الله في الدنيا لم ينفعهم الإيمان عند ذلك"[٣]، وقال:"أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَأَسْلَمَ طَوْعًا، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَأَسْلَمَ حِينَ رَأَى بَأْسَ اللَّهِ، قَالَ :{ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا }"[٤].

---

(١) انظر: تفسير السعدي ص٧٤٣.

(٢) انظر: هذه الرسالة ص٤٥.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره٢١/٤٢٤.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره١/٤٠٠.والطبري في تفسيره٦/٥٦٧.

وقَوْلِهِ تَعَالَى: {سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ}؛ قال ابن كثير:" هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل"(١)، وقَالَ مجاهد: "سُنَّتُهُ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا بَأْسَهُ آمَنُوا فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ إِيمَانُهُمْ"(٢).وقال الطبري:" قد مضى حكم الله في السابق من علمه، أن من تاب بعد نزول العذاب من الله على تكذيبه لم تنفعه توبته"(٣).وقوله تعالى:{وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ}؛ أي:"بذهاب الدارين"(٤).

إن من الحوادث التي ذكرها القرآن دالة على هذه السنة الربانية؛ بعدم نفع الإيمان عند نزول العذاب؛ ما ذكره من قصة فرعون؛ قال الله تعالى عنه:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ يونس: ٩٠ – ٩١؛ قال الطبري:يُعرِّف اللهُ تعالى فرعونَ قبح صَنيعه أيّام حياته؛ وإساءته إلى نفسه أيام صحته؛ فقال له –حين فزع إليه في حال حلول سَخطه به ونزول عقابه، منادياً له وقد علته أمواج البحر، وغشيته كرَبُ الموت–:{ ءَآلْـَٰٔنَ } تقرُّ لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهية؟ كيف وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك؟ فهلا إيمانك وأنت في مَهَلٍ، وباب التوبة لك منفتح؟(٥)، وقال الرازي:"لم يقبل الله توبته عند مشاهدة العذاب؛ ولو أنه أتى بذلك الإيمان قبل تلك الساعة بلحظة لكان مقبولا"(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير٧/١٦٠.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره٣/١٤٨.

(٣) تفسير الطبري٢١/٤٢٤.

(٤) الكشف والبيان٨/٢٨٤.

(٥) انظر: تفسير الطبري١٥/١٩٤.

(٦) مفاتيح الغيب١٠/٧.

وفي نفس المعنى السابق يقول الله تعالى مخاطباً المشركين؛ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ يونس: ٥٠ ـ ٥١؛ قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أهنالك إذا وقع عذابُ الله بكم أيها المشركون {ءَامَنتُم بِهِۦٓ}؛ يقول: صدّقتم به في حالٍ لا ينفعكم فيها التصديق، وقيل لكم حينئذ: {ءَآلْـَٰٔنَ} تصدّقون به، وقد كنتم قبل الآن به تستعجلون، وأنتم بنزوله مكذبون؟ فذوقوا الآن ما كنتم به تكذّبون"[1]، وقال السعدي:"{ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ} فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم:{ءَآلْـَٰٔنَ} تؤمنون في حال الشدة والمشقة؟ {وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ } فإن سنة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها[2].

فوات وقتهما بمشاهدة بعض الأشراط الكبرى للساعة؛ وعدم تحقيقهما النجاة حينها:

إن الإيمان نافعٌ ما دام هذا الكون يسير بنظامه المعتاد، أما حين يُخْتَرَم هذا النظام، وتحدث الحوادث الكبرى؛ فإن الإيمان حينها غير نافع؛ ولا يحصل به لصاحبه نجاة ولا سلامه، بل هو كتصديق الإنسان بحدوث الليل والنهار، وغير ذلك من الأمور المشاهدة؛ إيمان لا يقدِّمه عند الله، ولا ينفعه شيئاً.بيّن الله تعالى ذلك في قوله:﴿ **يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا** ﴾ الأنعام:١٥٨؛ أي:"لا ينفع من كان قبل ذلك مشركًا بالله، أن يؤمن بعد مجيء تلك الآية"[3].والآية التي لا يقبل الإيمان بعدها؛ قد فسرها النبي-ﷺ- بطلوع الشمس من مغربها؛ وذلك في حديث أبي هريرة-رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال:

---

(١) تفسير الطبري١٥/١٠١.

(٢) انظر: تفسير السعدي ص٣٦٦.

(٣) تفسير الطبري١٢/٢٤٧.

«لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ؛ وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ»(١).

وأيضاً فسر النبي-ﷺ-الآية التي لا ينفع عندها الإيمان؛ بما هو أشمل من طلوع الشمس من مغربها؛ وذلك في حديث أبي هريرة-ﷺ-؛ حيث قال-ﷺ-: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ»(٢)؛ ولا يشكل على تفسير الآية بهذا الحديث؛ ذكر الدابة، لأنها، وطلوع الشمس من مغربها؛ مقترنان تقريباً(٣)، ولكن المشكل ذكر الدجال؛ حيث إنه يتعارض في ظاهره مع تفسير الآية بحديث طلوع الشمس من مغربها.

وبناء على ما سبق فقد اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: {**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا**}، فأخذ المفسرون فيها؛ خمس اتجاهات:

الاتجاه الأول: من يفسرها بالثلاث:[الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها]، لكن يرى أن الثلاث متقاربة جداً؛ فتخرج متتابعة، ونسبة أولها خروجاً إلى آخرها؛ مجازية؛ ذكره ابن حجر من غير أن ينسبه لأحدٍ، وتعقبه بقوله:"وهذا بعيد؛ لأن مدة لبث الدجال إلى أن يقتله عيسى-عليه السلام- ثم لبث عيسى-عليه السلام- وخروج يأجوج ومأجوج، كل ذلك سابق على طلوع

---

(١) أخرجه البخاري٦/ ٧٣ حديث ٤٦٣٦ ؛ كتاب التفسير؛ باب لا ينفع نفساً إيمانها.وبنحوه؛ مسلم١/١٣٧حديث١٥٧؛ كتاب الإيمان؛ باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم١/ ١٣٨، حديث١٥٨؛ كتاب الإيمان؛ باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان.

(٣) يدل على ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-«إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى؛ وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا»[أخرجه مسلم٤/٢٢٦٠حديث٢٩٤١].

الشمس من المغرب"[١]، يعني، أن فترة لبث عيسى -عليه السلام- ليست قصيرة إلى حد أنه لا يمكن بعدها إحداث توبة[٢].

الاتجاه الثاني: من يفسرها بأحد الثلاث السابقة، لا كلها، ويرى أن بين أول هذه الثلاث وآخرها فترة؛ ولكن بخروج أي من الثلاث تنقطع التوبة؛ فأيتها تقدمت ترتب عليها عدم نفع الإيمان[٣]؛ وذكر طلوع الشمس من مغربها، ذكر لإحداها؛ وهو من باب تفسير {بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ} بذكر إحداها، وليس قصراً للآيات عليها[٤].

الاتجاه الثالث: من يفسرها باكتمال خروج الثلاث كلها؛ ويرى أن بين أولها وآخرها فترة؛ ولا يتحقق خروجها كلها إلا بخروج آخرها، وآخرها: طلوع الشمس من مغربها؛ قال ابن مفلح[٥] -بعد ذكره حديث الثلاث-:"المراد به أن طلوع الشمس من مغربها؛ آخر الثلاثة خروجاً؛ فلا تعارض بينه وبين ما سبق[٦]"[٧]، وقال الشيخ حمود التويجري:"ظاهر هذا الحديث الصحيح[٨]؛ يدل على أن التوبة لا تزال مقبولة حتى تخرج الثلاث كلها"[١].

---

(١) فتح الباري ١١/٣٥٣.

(٢) أخرج مسلم ٨/٢٠١ حديث ٢٩٤٠ عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- مرفوعاً:"يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين -لا أدرى أربعين يوما، أو أربعين شهرا، أو أربعين عاما- فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة".

(٣) فيض القدير ٣/٣٩٣.

(٤) انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٤/١٤٠.

(٥) ابن مُفْلِح: (٧٠٨ - ٧٦٣ هـ)، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي: أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد بن حنبل. ولد ونشأ في بيت المقدس، وتوفي بصالحية دمشق. من تصانيفه: (الفروع) (النكت والفوائد السنية على مشكل المحرر لابن تيمية) (أصول الفقه) و(الآداب الشرعية الكبرى)، و(حاشية على المقنع) [انظر: الأعلام ٧/ ١٠٧].

(٦) يعني حديث نفع الإيمان ما لم تطلع الشمس من مغربها.

(٧) الآداب الشرعية ١/١٤٣.

(٨) يعني حديث : "ثلاث إذا خرجن..."

الاتجاه الرابع: من يرى أن بين الثلاث؛ فترة؛ وعدم نفع الإيمان بعد خروج الدجال ليس عاماً، بل هو خاص بمن شاهد تلك الحادثة، ويعود بعده التكليف كما كان؛ ويكون عدم نفع الإيمان عامٌ إذا طلعت الشمس من مغربها[٢].

الاتجاه الخامس: من يفسر الآية بما هو أشمل من الثلاث؛ فيفسرها بأشراط الساعة الكبرى؛ ويرى أن أياً من أشراط الساعة العشر الكبرى لا ينفع الإيمان حين ظهورها، وذِكْرُ طلوع الشمس من مغربها، أو الدجال، والدابة؛ إنما هو من باب التفسير بذكر البعض.قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى:{يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا}:"يعني أشراط الساعة"[٣]؛ وقال الزمخشري:"المعنى أنّ أشراط الساعة إذا جاءت؛ وهي آيات ملجئة مضطرّة، ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً"[٤]، وهذا قال به كثير من المفسرين[٥].

والراجح أن المراد ببعض آيات ربك: طلوع الشمس من مغربها، وأن الإيمان نافع قبل ذلك، ولو خرج شيء من الآيات العشر قبلها؛ لأنه قد ثبت أن عيسى-عليه السلام- يدعو الناس إلى الإسلام[٦]، ومعلوم أن عيسى-عليه السلام- بعد الدجال؛ إذ أنه هو الذي يقتله[١].

---

(١) إتحاف الجماعة٢/٣٢٢.

(٢) انظر: المرجع السابق.

(٣) تفسير البيضاوي٢/٤٦٩.

(٤) الكشاف٢/٨٢.

(٥) انظر: الكشاف٢/٨٢، والبحر المحيط٤/٦٩٨، وتفسير البيضاوي٢/٤٦٩، وتفسير أبي السعود٣/٢٠٣.

(٦) أخرج الحاكم في المستدرك٢/٦٥١حديث٤١٦٣، قول النبي -ﷺ-:"إن روح الله عيسى ابن مريم نازل فيكم؛ فإذا رأيتموه فاعرفوه؛ رجل مربوع إلى الحمرة والبياض...فيدق الصليب...ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام"[قال الحاكم: صحيح، وقال الذهبي في تعليقه على المستدرك: صحيح].

قال الطبري-بعد ذكره شيئاً من الخلاف في تفسير الآية-:"أولى الأقوال بالصواب في ذلك، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله -ﷺ- أنه قال:"ذلك حين تطلع الشمس من مغربها"[٢]، وقال الشهاب الخفاجي:"من غفل عن أن هذا الحديث[٣] مُعارِض لما هو أصح منه؛ تثبث به هنا، والحق أنه يجب أن يكون المراد ببعض الآيات التي لا ينفع الإيمان بعدها: طلوع الشمس من مغربها، كما هو الموافق للأحاديث الواردة في عدم قبول التوبة"[٤].

فوات وقتهما بحضور الموت:

إذا كان الإيمان لا ينفع عند معاينة حقائق الآخرة العامة التي أخبر عنها الله ورسوله -ﷺ- ؛ فإن معاينة الإنسان حقائق الآخرة الخاصة به؛ لا ينفع معها الإيمان أيضاً.

وقد جاء القرآن بإثبات هذه الحقيقة في آياتٍ من آياته العظيمة، وقد مضى ما ورد من الآيات في قصة فرعون[٥]؛ ووردت آياتٌ أخرى تكشف هذه الحقيقة، ومن تلك الآيات: قوله تعالى:﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ النساء: ١٥٩؛ فقد فُسرت بأنه ما من كتابي-يهودي أو نصراني- إلا يؤمن بأن عيسى-ﷺ- عبد الله ورسوله، ليس كذاباً- كما تقول اليهود-، ولا ابن الله-كما تقول النصارى، بل يؤمنون إيماناً صحيحاً، ولكنه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنه إيمان بعد معاينة الموت، وحضور الأجل.قال ابن عباس-رضي الله عنهما-"لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى"[٦]، وقال أيضاً:"لو أن يهوديا وقع من حائط إلى الأرض لم يمت حتى يؤمن به"[٧]، وقال مجاهد:"لا تخرج نفسه حتى يؤمن

---

(١) أخرج أبو داود في سننه٤/١٩٩حديث٤٣٢٣؛ قول النبي -ﷺ- في حديثه عن الدجال:" ثم ينزل عيسى ابن مريم -عند المنارة البيضاء شرقي دمشق- فيدركه عند باب لد فيقتله".قال الألباني:صحيح؛[انظر صحيح الجامع حديث ٧٨٧٥].

(٢) تفسير الطبري١٢/ ٢٦٦، وقد سبق قريباً تخريج الحديث الذي ذكره.

(٣) يعني: "ثلاث إذا خرجن لا ينفع...."

(٤) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي٤/١٤٠.

(٥) أنظر: هذه الرسالة؛ ص١٧٥.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره٩/٣٨٢.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٤/١١١٣.

بعيسى، وإن غرق، أو تردَّى من حائط، أو أيّ ميتة كانت"[١]، قال الحسن:"يؤمنون إيمانا لا ينفعهم"[٢].وعلة عدم نفع إيمانهم لهم: أنهم عاينوا الموت، ورأوا حقائقه، قال السمرقندي:"إن اليهودي إذا حضرته الوفاة، وعاين أمر الآخرة؛ ضربته الملائكة؛ وقالت له: يا عدو الله؛ أتاك عزير فكذبته.ويقال للنصراني:يا عدو الله؛ أتاك عبد الله ورسوله عيسى-عليه السلام-؛ فزعمت أنه ابن الله؛ فيؤمن عند ذلك، ويقِر أنه عبد الله ورسوله، ولا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت ويكون إيمانهم عليهم شهيدا يوم القيامة"[٣]، وقال بعض المفسرين: يؤمن الكتابي بعيسى-عليه السلام- عند المعاينة، ولا ينفعه إيمانه، ويشهد عليهم عيسى-عليه السلام- يوم القيامة بأنه بلغهم رسالة ربه، وأنه أقرّ على نفسه بالعبودية[٤]، قال الزمخشري:" فإن قلت: ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم؟ قلت: فائدته الوعيد، وليكون عِلْمُهم بأنهم لا بدّ لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة؛ وأن ذلك لا ينفعهم، بعثا لهم وتنبيها على معاجلة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزاما للحجة لهم"[٥].

وجاءت آية بنص صريح؛ بأن توبة العبد عند حضور أجله لا تقبل، كما لا تقبل توبة من مات؛ وتلك الآية هي قوله تعالى:﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ النساء: ١٨؛ قال الطبري:"{حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ} يقول: إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاين ملائكة ربه؛ قد أقبلوا إليه لقبض روحه؛ قال: وقد غلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه؛ بشغله بكرب حشرجته وغرغرته:{إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ } يقول: فليس لهذا عند الله تبارك وتعالى توبة ؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة"[٦]، وقال

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره٩/٣٨٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٤/١١١٤.

(٣) بحر العلوم١/٣٨٠، وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان١/٢٧٠، وتفسير السمعاني١/٥٠٠.

(٤) انظر: الكشف والبيان٣/٤١٣، والوجيز للواحدي ص٣٠١.

(٥) الكشاف١/٥٨٩.

(٦) تفسير الطبري٨/٩٨.

السمرقندي:"{حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ}، يعني الشرق، والنزع، ومعاينة ملك الموت، {قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ } فليس لهذا توبة"(١).وقال النحاس:"يعني أنه إذا عاين؛ تبين له الحق، ولا تنفعه التوبة عند ذلك"(٢).قال الزمخشري:"سوّى بين الذين سوّفوا توبتهم إلى حضرة الموت، وبين الذين ماتوا على الكفر؛ في أنه لا توبة لهم، لأنّ حضرة الموت أول أحوال الآخرة، فكما أنّ المائت على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين، فكذلك المسوّف إلى حضرة الموت؛ لمجاوزة كل واحد منهما أوان التكليف والاختيار"(٣).

فوات وقتهما بالموت:

إذا كان وقت الإيمان والتوبة يفوت بحضور الموت، فإن فواته بالموت نفسه من باب أولى، وهذا قد تبين بالآية السابقة؛ في قوله سبحانه: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ النساء: ١٨، فقوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ النساء: ١٨؛ بيان واضح بأن من مات كافراً لا تقبل توبته.وقد أفاد الطبري أن الله -جل ثناؤه- يعني: ولا التوبة للذين يموتون وهم كفار...وَقَوْلُهُ:{أُو۟لَـٰٓئِكَ } يعني هؤلاء الذين يموتون وهم كفار {أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٱلَّذِينَ؛ لأنهم من التوبة أبعدهم لموتهم على الكفر(٤).

---

(١) بحر العلوم١/٣١٥.

(٢) معاني القرآن٢/٤٣.

(٣) الكشاف١/٤٨٩.

(٤) تفسير الطبري٨/١٠٢.

فوات وقتهما بقيام الساعة:

إذا كان الإيمان والتوبة لا يقبلان عند حضور الموت، ولا عند حصول الموت؛ فإن عدم قبولهما بعد البعث أولى وأحرى؛ مع أن الكفار يعلنونهما صراحة، ويعلنون أسفهم على ما سلف منهم، ويعلنون خضوعهم لله ولأمره؛ إلا أن كل هذا لا يشفع لهم في قبول توبتهم، ولا في التخفيف من عذابهم؛ هذه الحقائق قد كشفها القرآن بكل وضوح؛ في عدة آياتٍ عظيمة، ومن تلك الآيات:

قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ السجدة: ١٢؛ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:"لما كان يوم القيامة؛ أبصروا وسمعوا فلم ينتفعوا؛ ثم قرأ الآية"[١]

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ سبأ: ٥١ ـ ٥٤؛ قال الطبري:"فزعوا يوم القيامة حين خرجوا من قبورهم"[٢]، { وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ }؛ أي: "قال هؤلاء المشركون حين عاينوا عذاب الله: آمنَّا به، يعني: آمنَّا بالله وبكتابه ورسوله"[٣]؛ {وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ }؛ أي: وأين لهم التوبة والرجعة، أي: قد بعدت عنهم، فصاروا منها كموضع بعيد أن يتناولوها، لأنهم قالوا: ذلك في القيامة؛ فقال الله: أنى لهم بالتوبة المقبولة، والتوبة المقبولة إنما كانت في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارت بعيدًا من الآخرة"[٤]؛ { وَحِيلَ } بين هؤلاء المشركين حين

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١٨/١٩٩.

(٢) تفسير الطبري٢٠/٤٢٤

(٣) المرجع السابق٢٠/ ٤٢٤.

(٤) المرجع السابق٢٠/ ٤٢٦.

{فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ }، فقالوا: آمنَّا به؛ {وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ} حينئذٍ من الإيمان بما كانوا به في الدنيا قبل ذلك يكفرون، فلا سبيل لهم إليه"[١].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأنعام: ٣٠؛ فهم شهدوا أن البعث، والجنة، والنار حقٌ؛ لكن هذا الإيمان لا ينفعهم.قال الطبري"يقول: أليس هذا البعثُ، والنشر بعد الممات، - الذي كنتم تنكرونَه في الدنيا- حقًّا؟ فأجابوا، فقالوا: بلى" والله إنه لحقّ؛ {قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ } الذي كنتم به في الدنيا تكذبون[٢].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ الأنعام: ٣١؛ "المراد بلقاء الله: البعث والجزاء"[٣].وقولهم:{يَا حَسْرَتَنَا لِلَّذِينَ؛ "وقع النداء على الحسرة؛ للدلالة على عِظَم الحسرة[٤]؛...وهو تنبيه للناس على عظيم ما يحل بهم من الحسرة""[٥]؛ {عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا}؛ يعني: في الدنيا؛ لأنها موضع التفريط في الأعمال الصالحة"[٦].فهذا إعلان منهم للندم على ما كان منهم، وقد قال النبي-ﷺ-: "الندم توبة"[٧]، ولكن إيمانهم وتوبتهم لم يقبلا منهم، لفوات وقتهما بقيام الساعة.

---

(١) تفسير الطبري٢٠/٤٣٠.

(٢) انظر: المرجع السابق١١/ ٣٢٤.

(٣) زاد المسير٣/ ٢٤.وانظر: تفسير القرطبي٦/ ٤١١.

(٤) قال القرطبي: وقع النداء على الحسرة، وليست بمنادى في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التحسر، ومثله: يا للعجب، ويا للرخاء؛ وليسا بمنادين في الحقيقة؛ ولكنه يدل على كثرة التعجب، والرخاء.قال سيبويه: كأنه قال: يا عجب تعال؛ فهذا زمن إتيانك؛ وكذلك قولك: يا حسرتي؛ أي يا حسرة تعالي فهذا وقتك، وكذلك ما لا يصح نداؤه يجرى هذا المجرى.[تفسير القرطبي٦/٤١٢].

(٥) تفسير القرطبي٦/٤١٢.

(٦) تفسير الخازن٢/١٠٨.

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده١/ ٣٧٦حديث ٣٥٦٨، قال الألباني: صحيح[انظر:صحيح الجامع حديث ٦٨٠٢].

فتبين بهذه الآيات العظيمة أن وقت الإيمان؛ يفوت بقيام الساعة؛ وعند ذلك لا يكون الإيمان سبباً للنجاة، كما كان في الدنيا.

٢ ـ الاعتماد على الآلهة المفتراة:

يعتقد المشركون أن لآلهتهم التي اتخذوها من دون الله؛ قدرة على النفع والضر؛ فعبدوها مع الله، أو من دونه؛ للنجاة من الضر التي ستصيبهم به –بظنهم- إن هم استهانوا بعبادتها.وقد امتلأت قلوب المشركين قناعة بهذا الاعتقاد، حتى أنهم إذا جاءهم الأنبياء-عليهم السلام- يبينون لهم الحق، ويكشفون لهم الحقيقة؛ ظنوا أن أولئك الأنبياء قد أصابتهم تلك الآلهة بالجنون نتيجة لاستخفافهم بها؛ كما بيّن الله ذلك عن عاد-قوم هودٍ-ﷺ- في قوله عنهم:﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ هود: ٥٤؛ قال الطبري:" أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا جنون أصابك به بعض آلهتنا"(١).

إن كون الآلهة المفتراة سبب تتحقق به النجاة، إنما هو وهمٌ توهمته أذهان المشركين، وصدقته قلوبهم، وقد بيّن القرآن الحقيقة، وأبطل هذا التوهم بأدلة عقلية، وبأدلة واقعية؛ كل ذلك في غاية من البلاغة والإحكام.ولا يكاد يوجد في القرآن أدلة لإبطال شيء مثل الأدلة التي جاءت لإبطال هذا التوهم.ومن تلك الأدلة:

قول الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ الأعراف: ١٩٤؛ قال الطبري:"يقول –جل ثناؤه- لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان؛ موبخهم على عبادتهم ما لا يضرهم، ولا ينفعهم من الأصنام: إن الذين تدعون –أيها المشركون- آلهة من دون الله، وتعبدونها؛ شركا منكم، وكفرا بالله، {عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } يقول : هم أملاك لربكم، كما أنتم له مماليك.فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة؛ لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم، فإن لم يستجيبوا لكم؛ لأنها لا تسمع دعاءكم؛ فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر"(٢).وقال ابن

(١) تفسير الطبري١٢/ ٥٠٨.

(٢) المرجع السابق١٣/ ٣٢١.

عاشور:"قوله: {فَٱدْعُوهُمْ}؛ مستعمل في التعجيز باعتبار ما تفرع عليه من قوله: {فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ}؛ لأن نفس الدعاء ممكن؛ ولكن استجابة الأصنام لهم ليست ممكنة، والأظهر أن المراد بالدعوة المأمور بها؛ الدعوة للنصر والنجدة[١].

وأيضاً؛ كشف لهم عدم تحقيقها النجاة لهم في الآية التي بعدها؛ فقال: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الأعراف: ١٩٥؛ قال الطبري في قوله:{أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ}؛ أي:فَيَدْفَعُونَ عَنْكُمْ مَنْ يَقْصِدُكُمْ بِشَرٍّ وَمَكْرُوهٍ[٢]، فلفت الله تعالى أذهانهم بهذه الآية إلى أنها لا تنجي من مكروه أبداً، وإن اعتقد عابديها ذلك.

وقال الله تعالى-كاشفاً أن سببية الأصنام للنجاة متوهمة-: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ الأعراف: ١٩١ – ١٩٢؛ قال الطبري:"لاَ تَجْتَلِبُ إِلَى نَفْسِهَا نَفْعًا، وَلاَ تَدْفَعُ عَنْهَا ضُرًّا، فَهِيَ مِنْ نَفْعِ غَيْرِ أَنْفُسِهَا أَوْ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْهَا؛ أَبْعَدُ.يُعَجِّبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلْقَهُ مِنْ عَظِيمِ خَطَإِ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِمُ اللَّهَ غَيْرَهُ"[٣].

وبيّن الله تعالى عجز تلك الآلهة عن حماية أنفسها، فكيف تحقق النجاة لغيرها؛ في آية بليغة عظيمة، يضرب الله فيها مثلاً؛ ينبه به "عابد الصنم يطلب منه الشفاعة والنصرة"[٤]؛ وهي

---

(١) انظر: التحرير والتنوير٨/ ٣٩٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري١٣/ ٣٢٢.

(٣) المرجع السابق١٣/ ٣١٩.

(٤) الوجيز للواحدي ص٧٤١.

قول الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ الحج: ٧٣؛ قال الطبري:"يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: كَيْفَ يُجْعَلُ لِي مِثْلاً فِي الْعِبَادَةِ، وَيُشْرِكُ مَعِي مَا لاَ قُدْرَةَ لَهُ عَلَى خَلْقِ ذُبَابٍ، وَإِنْ استنذله الذُّبَابُ فَسَلَبَهُ شَيْئًا عَلَيْهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنْهُ، وَلاَ يَنْتَصِرَ"[١].فمن لا يستطيع الامتناع من الذباب؛ كيف يستطيع أن يمنع غيره من عظائم الدواهي؛ "أخبر الله عن الصنم أنه لا قوة له، ولا حيلة"[٢].وقال الرازي:"لما لم تنفع نفسها في هذا القدر وهو تخليص النفس عن الذبابة؛ فلأن لا تنفع غيرها أولى"[٣].

إن الحماية التي تحققها الأصنام لعابديها، شبيهة بالحماية التي يحققها بيت العنكبوت لها، إنه لا ينجيها من حَرٍ، ولا بَرْدٍ، ولا يقيها من ريح، ولا من ماء؛ بيّن القرآن ذلك في قول الله سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ العنكبوت: ٤١؛ أي:"فكما أنّ بيت العنكبوت لا يدفع عنها بردا ولا حرا؛ كذلك هذه الأوثان لا تملك لعابديها نفعا ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا"[٤]؛ فبيت العنكبوت"لا يجير آوياً، ولا يريح ثاوياً"[٥]، ولكنها اتخذته"ليقيها الردى، ويحميها البلا"[٦]، ولكنه كان كما هو معروفٌ "لا يكِّن من حر، ولا يصون من برد، ولا يحصن عن طالب"[٧]، فهو في غاية الوهن والضعف، ولكن الآلهة المفتراة

---

(١) تفسير الطبري١٨/٦٨٦.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان٢/٣٩٠.

(٣) مفاتيح الغيب٢٣/٦٠.

(٤) الكشف والبيان٧/٢٧٩.

(٥) مفاتيح الغيب٢٥/٦٠.

(٦) نظم الدرر٥/٥٦١.

(٧) المرجع السابق.

من دون الله أضعف منه، لا تقي من شرٍ قبل وقوعه، ولا تنقذ منه بعد وقوعه، فهي لا تحقق من النجاة أصلاً ولا فرعاً، وما تحقيقها النجاة إلا وهما توهمته أذهان الجاهلين الذين لا يعلمون شيئاً.

إن عقول أولي الألباب تنتبه إلى هذه الحقائق الظاهرة لكل ذي عينين، فيكون ذلك سبباً في ابتعادهم عن هذا السبب الوهمي، كما بيّن ذلك الرجل الذي نصح قومه باتباع المرسلين؛ بيّن الله قوله في قوله عنه: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ يس: ٢٣ – ٢٤؛ فقَوْلُهُ : { ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا }؛ قال مقاتل:"لا تقدر الآلهة أن تشفع لي، فتكشف الضر عني شفاعتها"(١)، وقال الطبري:"يَقُولُ : لاَ تَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ ذَلِكَ الضُّرِّ عَنِّي؛ {وَلَا يُنقِذُونِ} يَقُولُ : وَلاَ يُخَلِّصُونِي مِنْ ذَلِكَ الضُّرِّ إِذَا مَسَّنِي"(٢)، وقال السمعاني:"لا تغني عني الأصنام شيئا؛ لأنه لا شفاعة لهن"(٣). { إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ }؛ لأن "إشراك ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر، بالخالق المقتدر الذي لا قادر غيره ولا خير إلا خيره؛ ضلال بين لا يخفي على أحد ممن له تمييز في الجملة"(٤)، وقال ابن عاشور:"المقصود: التعريض بالمخاطبين في اتخاذهم تلك الآلهة بعلة أنها تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه زلفى؛ وقد علم من انتفاء دفعهم الضر أنهم عاجزون عن جلب نفع لأن دواعي دفع الضر عن المولى أقوى وأهم، ولحاق العار بالولي في عجزه عنه أشد"(٥).

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان٣/٨٤.وانظر: بحر العلوم٣/١١٤.

(٢) تفسير الطبري٢٠/٥٠٧.

(٣) تفسير السمعاني٤/٣٧٣.

(٤) تفسير أبي السعود٧/١٦٤.

(٥) التحرير والتنوير٢٢/٢١٦.

إن القرآن قد أبطل بذلك كل شبهة يتعلق بها المشركون في شركهم، ولكن المشركين أصروا على شركهم حتى جاءهم شيء لم يكن بحسبانهم؛ جاءهم عذاب الله المهلك المستأصل، فأقروا بعجز آلهتهم، وبخطئهم العظيم حين جعلوا لله شركاء؛ فقالوا ما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ الأعراف: ٥؛ قال السمعاني:"معناه: لم يقدروا على رد العذاب حين جاءهم العذاب، وكان حاصل أمرهم أن اعترفوا بالخيانة حين لا ينفع الاعتراف"(١).وانكشفت الحقيقة؛ وتبيّن أنهم كانوا واهمين في ظنهم أن الآلهة التي افتروها ستدفع عنهم؛ كما ذكر الله ذلك بقوله عمن أهلكهم من أهل القرى: ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ هود: ١٠١؛ قوله: {فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ } يعني: "ما نفعتهم وما دفعت عنهم"(٢)، ولم تمدّ إليهم يدا تستنقذهم من البلاء الذي حل بهم(٣)؛ {وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ}؛ أي:"تخسير، وتدمير، وهلاك"(٤)، وذلك لأنها كانت سبباً في صدودهم عن التوجه إلى الله وإخلاص العبادة له، وكان ذلك لو حصل هو الذي سيكون به نجاتهم، ولكنهم انخدعوا بتلك الآلهة المزعومة، فازدادوا عذاباً إلى عذابهم، وخسراناً إلى خسرانهم، وحسرة إلى حسرتهم؛ حينما جدّ الجد، ورأوا أنهم مخدوعين بها، وأن تلك الآلهة ضلت عنهم حين جاء البأس الشديد(٥).

---

(١) تفسير السمعاني٢/١٦٥.وانظر: معالم التنزيل٣/٢١٤.

(٢) الوجيز للواحدي ص٥٣٣.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن٦/١١٩٩.

(٤) تفسير الطبري١٥/٤٧٢.

(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن٦/١١٩٩.

العجيب حقاً أن ذلك الدرس العظيم، قد حصل لكل الأمم؛ كما هو ظاهر من قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ هود: ١٠٠ – ١٠١؛ فالقرى المهْلَكة كلها قد حصل لهم ذلك؛ وكان على الأمة اللاحقة أن تستفيد هذا الدرس من الأمة أو الأمم التي سبقتها؛ لكن ذلك لم يحصل، بل وقعت الأمة اللاحقة فيما وقعت به سابقتها، وذاقت المصير نفسه[1]، وهذا ما نبّه الله له في قوله:﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الأحقاف: ٢٧ – ٢٨؛ أفاد الطبري أن في هذا احتجاج من الله لنبيه محمد-ﷺ- على مشركي قومه، يقول لهم: لو كانت آلهتكم التي تعبدون من دون الله تغني عنكم شيئا، أو تنفعكم عند الله؛ كما تزعمون أنكم إنما تعبدونها لتقربكم إلى الله زلفى، لأغنت عمن كان قبلكم من الأمم التي أهلكتُها بعبادتهم إياها؛ فدفعت عنها العذاب، أو لشفعت لهم عند ربهم، فقد كانوا من عبادتها على مثل الذي عليه أنتم، ولكنها ضرتهم ولم تنفعهم؛ يقول -تعالى ذكره-: {بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ} يقول: بل تركتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، فأخذت غير طريقهم، لأن عبدتها هلكت، وكانت هي حجارة أو نحاسا، فلم يصبها ما أصابهم ودعوها، فلم تجبهم، ولم تغثهم، وذلك ضلالها عنهم[2].

---

(١) هذا يبين لك أن الهداية لا تحصل لأحد إلا بإذن الله؛ فمهما كانت المواعظ، ومهما كانت الدواعي للإيمان متوفرة، إلا أن الهداية لن تحصل إلا لمن أرادها الله له، وقد بيّن الله ذلك في كتابه في آياتٍ كثيرة؛ ومنها قوله سبحانه: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (الأنعام:١١١)}.

(٢) انظر: تفسير الطبري٢٢/١٣٣.

إن ما حصل عِظة لمن أراد الله هدايته، وما حصل في الدنيا من عدم إنجاء الآلهة لأهلها؛ أصلٌ يقيس عليه العاقل ما سيحصل في الآخرة، فإن كانت لم تنج أهلها في الدنيا، فلن تنجيهم في الآخرة.إن هذا أمرٌ بدهي يعلمه العاقل ولو لم ينزل به وحي، لكن الله تعالى برحمته جعل الأدلة تتوارد على إثبات هذا المعنى، فبالإضافة إلى الدليل القياسي العقلي، جاءت النصوص القرآنية مثبتة لذلك أيضاً.

من الأدلة القرآنية التي بينت أن الآلهة المفتراة لن تنجي أصحابها في الآخرة؛ قول الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾ الكهف: ٥٢؛ ومثلها قوله تعالى:﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ القصص: ٦٤؛ قال الواحدي:"يقول الله –تعالى– يوم القيامة: ادعوا الذين أشركتم بي ليمنعوكم من عذابي"[(١)]، وقال البغوي:"لتخلصكم من العذاب"[(٢)]، وقال ابن الجوزي:"المراد: نادوهم؛ لدفع العذاب عنكم، أو الشفاعة لكم"[(٣)].ثم ذكر الله ما يحصل بعد أمره لهم بدعائهم؛ فقال:{فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ}؛ قال ابن عجيبة:"فلم يجيبوهم؛ لعجزهم عن الإجابة والنصرة"[(٤)]؛ ثم ذكر الله تحسرهم في تلك الساعة في قوله: {وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}؛ قال الطبري:"يَقُولُ : فَوَدُّوا حِينَ رَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُهْتَدِينَ لِلْحَقِّ"[(٥)].فهم تحسروا؛ ولكن ليس في الحسرات إلا زيادة العذاب.

---

(١) الوجيز ص٦٦٥.

(٢) معالم التنزيل٦/٢١٧.

(٣) زاد المسير٥/١٥٥.

(٤) البحر المديد٥/٤٢٩.

(٥) تفسير الطبري١٩/٦٠٦.

وأكدّ القرآن المعنى السابق في قوله سبحانه: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ الشعراء: ٩١ – ٩٨؛ فقوله: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ الشعراء: ٩٢ – ٩٣؛ قال الطبري: "{هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ} اليوم من الله، فينقذونكم من عذابه، {أَوْ يَنْتَصِرُونَ} لأنفسهم، فينجونها مما يُرَاد بها"[(١)].

ويؤكد القرآن المعنى السابق بآية أخرى؛ وهي قوله تعالى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الجاثية: ١٠؛ فقوله: {ولا يغني عنهم}؛ أي: "لا ينفعهم"[(٢)] و"لا يدفع عنهم"[(٣)]، قال ابن عاشور: "عدي بحرف (عن) لتضمينه معنى يدفع"[(٤)]، وقوله: {شيئاً}؛ نَكِرَها للتقليل؛ أي لا يدفع عنهم ولو قليلا من جهنم، أي عذابها[(٥)].

فتبين بهذا أن هذا ما ظنه المشركون سبباً يحقق لهم النجاة، ليس سبباً حقيقياً، فسببيته مجرد وهمٍ توهموه، وكان سبب في عطبهم، لا سبب في نجاتهم.

---

(١) المرجع السابق١٩/٣٦٧.

(٢) التحرير والتنوير٢٥/٣٥٤

(٣) تفسير السمعاني٥/١٣٦، وتفسير البيضاوي٥/١٦٩.

(٤) التحرير والتنوير٢٥/٣٥٤

(٥) انظر: المرجع السابق بنفس الموضع.

٣- كثرة الأموال والأولاد:

المتأمل لواقع الناس؛ يجد أنهم -على مر العصور- يريدون بالمال والأولاد تحقق العزة والمنعة والجاه لهم بهما، فبسببهما -بظنهم- لا يصل إليهم مكروه.

ولقد بيّن الله تعالى في كتابه أنهما بِعِداد كثير من الناس سببان تتحقق بهما النجاة من الأذى-أياً كان-، وقد بيّن الله تعالى في كتابه بطلان هذا الإطلاق، فالمال والولد وإن تحقق بهما بعض أنواع النجاة، إلا أنها لا تتحقق بهما مُطلقاً، بل إن هناك من المآزق ما لا ينفع فيه مالٌ ولا ولد.

إن كثرة الأموال والأولاد قد تكون فتنة للإنسان يُصَدُّ بسببهما عن اتباع الحق؛ وقد نبّه الله إلى ذلك بقوله: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦، فما الأمر إلا مكرٌ من الله يمكر بهم؛ فظنوا -بجهلهم- أنه مسارعة لهم في الخيرات؛ وما ذلك كذلك؛ إن إمداد الله إياهم بما أمدّهم به من ذلك؛ إنما هو إملاء واستدراج لهم، ولكنهم لا يعلمون[1].وتتدرج بهم الحال حتى تصل بهم إلى أن يقولوا قول المفتونين قبلهم؛ القول الذي بينه الله في قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ سبأ: ٣٥؛ كثرة المال والأولاد فتنتهم، فظنوا أنهم في عصمة ما في أيديهم من أموال وأولاد، وأنهم سيَنْجَون بهما من أي بلاء في الدنيا، أو في الآخرة[2].وقد ردّ الله عليهم هذا بقوله: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ سبأ: ٣٧؛ فإذا أراد الله

---

(١) تفسير الطبري١٩/٤٣.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن١١/٨٣٦.

بذلك الإنسان سوءا، فهما ليسا سبباً في دفعه عن ذلك الإنسان- وليسا يدنيانه ويقربانه إلى الله.

إن نفي سببيتهما لتحقيق مطلق النجاة قد جاء في القرآن بإفراد كل واحدٍ منهما أحياناً، ولكن الأكثر أن يقرن الله بينهما.

آيات أفرد فيها المال في نفي تحقيقه النجاة:

هنا آياتٌ أفرد فيها المال؛ ومنها: قول الله تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ الليل: ١١؛ ومعناها كما أفاد الطبري: أي شيء يدفع عن هذا الذي بخل بماله، واستغنى عن ربه، ماله يوم القيامة(إذا) هو(تَرَدَّى)؛ أي مات، أو سقط في جهنم[1].ومثلها قول الله تعالى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ ﴾ الحاقة: ٢٨؛ يتحسر من يعطى كتابه بشماله، ويقول{ما أغنى عني ماليه}؛"أي لم يغن عني المال الذي جمعته في الدنيا شيئاً من العذاب؛ بل ألهاني عن الآخرة وضرني فضلاً عن أن ينفعني"[2]، ومثل هذه الآية؛ قوله تعالى -في شأن من اعتزوا بالمال-: ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ الزمر: ٥٠، وقوله عن خطاب أهل الأعراف لأهل النار: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الأعراف: ٤٨، وقوله سبحانه في أبي لهب[3]: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ

---

(١) انظر: تفسير الطبري٢٤/٤٧٦.

(٢) روح البيان١٠/١١٠.

(٣) أبو لهب(...-٢هـ):عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم؛ عم النبي-ﷺ-كُنِيَ: أبا لهب؛ لحسنه؛ لأنه كان كأنه يتلهب من الحُسن.وكان أبو لهبٍ من أشدِّ الناس فرحاً بولادة النبي-ﷺ-؛ وأعتق لذلك مولاته: ثويبة، وأمرها أن ترضعه.لكنه عادى النبي-ﷺ-لما جهر بالدعوة؛ وقال له حينما صعد الصفا، واجتمعت حوله قريش؛ فأخبرهم بدعوته: تباً لك؛ ألهذا جمعتنا؛ فأنزل الله:{تبت يدا أبي لهب وتب}؛ وكان النبي-ﷺ-يتتبع مجامع الناس يدعوهم إلى الإسلام؛ فكان أبو لهب خلفه؛ يقول: يا أيها الناس إن هذا قد غوي

﴿مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ المسد: ٢، وقد تواردت آياتٌ كثيرة أفردت المال بالذكر تبين عدم تحقيقه للنجاة في الآخرة، وعند حلول نقمة الله وغضبه ونزول عذابه؛ ينكشف الغطاء، وتتبين الحال.

آيات أفرد فيها الأولاد في نفي تحقيقهم النجاة:

كما أن الله تعالى أفرد الأولاد بالذكر؛ في بيان أنهم لا يحققون للإنسان النجاة إذا لم يرد الله ذلك؛ في قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ الممتحنة: ٣؛ قال الطبري: {لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم} عند الله يوم القيامة، فتدفع عنكم عذاب الله يومئذ، إن أنتم عصيتموه في الدنيا، وكفرتم به[1]، وقال ابن كثير:"لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءا"[2].

آيات جمع بينهما في نفي تحقيقهما النجاة:

جمع بينهما في نَفْيِ تحقيقهما النجاة، وهو الأكثر في القرآن؛ لأنه أبلغ في موضعه؛ وبيان ذلك أنهما إذا عجزا معاً عن تحقيق النجاة، فلأن يعجز أحدهما بمفرده عن تحقيقها أولى وأحرى؛ ومن الآيات التي جمع الله بين المال والولد في نفي تحقيقهما النجاة؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ آل عمران: ١٠؛ قال الطبري:"يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلاَدَهُمْ لَنْ تُنْجِيَهُمْ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ إِنْ أَحَلَّهَا بِهِمْ عَاجِلاً فِي الدُّنْيَا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ بَعْدَ تَبَيُّنِهِمْ...وهم في الآخرة {وقودُ

فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم، ورسول الله-ﷺ-يفر منه وهو على أثره.وكان في الجاهلية أحد الأشراف الشجعان، وفي الإسلام أحد أكبر الأعداء، مات بعد وقعة بدر بأيام ولم يشهدها.[انظر: تاريخ دمشق٦٧/١٦١، والخصائص للسيوطي ص٣٥١، والأعلام٤/١٢].

(١) تفسير الطبري٢٣/٣١٦.

(٢) تفسير ابن كثير٨/٨٦.

النار}؛ يعني بذلك: حَطبُها"[١].وقال السمعاني:" أي: لا تدفع أموالهم بالفدية، ولا أولادهم بالنصرة من عذاب الله؛ وذلك أن الإنسان يدفع عن نفسه بفداء المال، وتارة بالاستعانة بالأولاد"[٢].ومن الآيات التي دلت على أن المال والأولاد مجتمعان لن يحققا النجاة للإنسان في غير موضعهما؛ قول الله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾آل عمران:١١٦؛ فقال هنا:{وأولئك أصحاب النار}؛ وقال في الآية قبلها:{وأولئك هم وقود النار}؛ قال الطبري:" يعني: لن تدفع أمواله التي جمعها في الدنيا، وأولاده الذين ربَّاهم فيها، شيئًا من عقوبة الله يوم القيامة إن أخرها لهم إلى يوم القيامة، ولا في الدنيا إنْ عجَّلها لهم فيها"[٣]؛ وقال الثعلبي في قوله:{وَأُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ}: "إنما جعلهم من أصحابها؛ لأنهم من أهلها الذين لا يخرجون منها، ولا يفارقونها، كصاحب الرجل الذي لا يفارقه، وقرينه الذي لا يزايله"[٤]؛ فكان هذا مصيره لم ينقذه منه مالٌ ولا ولدٌ.

إذا كان ما سبق من النصوص؛ تناول الكفار الظاهرين، فإن الكفار الباطنين- وهم المنافقين- ليسوا بأحسن حالاً من أولئك، بل هؤلاء كأولئك؛ لن تنقذهم أموالهم ولا أولادهم، ولن تنجيهم مما يحل بهم من سخط الله؛ في الدنيا، أو في الآخرة؛ قال الله تعالى في شأنهم:﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ المجادلة: ١٧؛قال الطبري:" يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: لَنْ تُغْنِيَ عَنْ هَؤُلاَءِ الْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْوَالُهُمْ؛ فَيَفْتَدُوا بِهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْمُهِينِ لَهُمْ، وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ؛ فَيَنْصُرُونَهُمْ وَيَسْتَنْقِذُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ إِذَا

(١) تفسير الطبري٦/٢٢٢.

(٢) تفسير السمعاني١/٣٥٠.

(٣) تفسير الطبري٧/١٣٣.

(٤) الكشف والبيان٣/١٣٣.

عَاقَبَهُمْ. {أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ}؛ يَقُولُ:هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ{أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ}؛ يَعْنِي أَهْلَهَا الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، {هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ}؛ يَقُولُ : هُمْ فِي النَّارِ مَاكِثُونَ إِلَى غَيْرِ نِهَايَة"[١].وقال برهان الدين البقاعي:":{ لَّن تُغْنِىَ }؛ أي: بوجه من الوجوه، {عَنْهُمْ }؛ أي في الدنيا، ولا في الآخرة؛ بالافتداء، ولا بغيره{أَمْوَٰلُهُمْ }، وأكد النفي بإعادة النفي للتنصيص على كل منهما فقال:{وَلَآ أَوْلَٰدُهُم }؛ أي:بالنصرة والمدافعة {مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا }؛ أي من إغناء؛ ولو قل جداً"[٢].وقال ابن عاشور: كان المنافقون من أهل الثراء بالمدينة، فكانوا يفخرون على المسلمين بوفرة الأموال، وكثرة العشائر، وذلك في السنة الأولى من الهجرة، فآذنهم الله بأن أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم مما توعدهم الله به: من المذلة في الدنيا، والعذاب في الآخرة، بل إنها إذا لم تغن عنهم من الله في الدنيا؛ فإنها أجدر أن لا تغني عنهم من عذاب الآخرة شيئا ولو قليلاً، وإقحام حرف النفي في المعطوف على المنفي؛ في قوله: {وَلَآ أَوْلَٰدُهُم }؛ لتوكيد انتفاء الإغناء؛ وقد تقرر من قوله: {أعد الله لهم عذابا شديدا}، وقوله:{فلهم عذاب مهين}؛ أنهم لا محيص لهم عن النار، فكيف تغنى عنهم أموالهم وأولادهم شيئا من عذاب النار[٣].

وبهذا يتبيّن أن كثرة الأموال والأولاد- وإن تعزز بهما الجاهلون- فإنهما لا يحققان النجاة لأحدٍ من عذاب الله الدنيوي أو الأخروي، وأنهما لا يحققان للإنسان عند الله حظوة؛ ما لم يكن مؤمناً صالحاً، ولعل هذه الخلاصة هي التي يدل عليها قول الله تعالى:{ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ

(١) تفسير الطبري٢٣/٢٥٤

(٢) نظم الدرر٧/ ٥٠٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير٢٨/ ٤٦.

أَوْلَٰدُكُمْ بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ سبأ: ٣٧.

٤ـ المكر السيئ وإحكام الخُطط

يعتقد كثيرٌ من الناس أنه لا يمكن وصول السوء إلى من أحكم الخُطط المادية، وأحسن تدبير الكيد، ويعتقد أن إتقان ذلك ينجي الإنسان والأمة من كل سوء، وأن وصول السوء لأحد لا يكون إلا نتيجة إخلال بذلك.

ولأن الكفار – في الغالب- أكثر خبرة من المؤمنين في كل ما سبق، وأكثر ممارسة لذلك، وهم أهل خُبث لا يتورعون عن شيء يحققون به مآربهم، وأهل جهل بقوة الله، وقدرته، وشدة انتقامه، وأكثر غفلة عن ما جرى للأمم السابقة، فقد اعتقدوا أنهم لا يمكن وصول السوء إليهم لذلك، وظنوا أن المؤمنين الذين لا يتصفون بتلك الصفات؛ بلهٌ، ضِعاف الرأي؛ كما ذكر الله عن قوم نوح-عليه السلام- أنهم قالوا له:﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ ﴾ هود: ٢٧؛ بمعنى أنهم يأخذون الأمور من غير نظر إلى بواطنها، وإنما يأخذون ما بدا منها وظهر؛ من غير تدبر وتفكر وتفهم(١).

إن الكيد وإحكام الخطط، وإن كان سبباً لتحقيق النجاة دائما في ظن الجاهلين، فإن حقيقة الأمر ليست كذلك؛ فقد بيّن الله في كتابه أن ذلك لا ينجي صاحبه من الله، ولا ينقذه من عذاب الله، بل إن مكره يحيق به.وقد القرآن دل على ذلك بآيات كثيرة.

قال الله تعالى- في ثمود قوم صالح-عليه السلام-:﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ ﴾ النمل: ٥٠ ـ ٥١؛ فمكرهم كان عظيماً، ولذا وصفه فقال:{ومكروا مكراً}؛ قال ابن عاشور:"سمى الله تآمرهم مكرا؛ لأنه كان تدبير ضر في خفاء، وأكدَّ مكرهم بالمفعول المطلق؛ للدلالة على قوته في جنس المكر، وتنوينه للتعظيم"(٢)، فكان مكراً من أعظم المكر، ولكنه لم

---

(١) انظر: معالم التنزيل٤/١٧١.

(٢) التحرير والتنوير١٩/٢٧٦.

يحقق لهم ما أرادوا؛ ولذا قال تعالى:{ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون}، قال سيد قطب:"وأين مكر من مكر؟ وأين تدبير من تدبير؟ وأين قوة من قوة؟ وكم ذا يخطئ الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة، ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل، والقوة التي تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لا يشعرون:{فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا}"[1]، لم يحقق لهم مكرهم ما أرادوا، بل تحقق نقيضه، فقد كانت عاقبته تدميرهم جميعاً.

ومن الآيات التي تدل على نفس الأمر؛ قول الله تعالى-مخاطباً المؤمنين-:﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٢٠؛ قال الطبري:"يعني بـ{كيدهم}: غوائلهم التي يبتغونها للمسلمين"[2]، فكيد الكفار لن يؤدي إلى النتيجة التي يرضونها من النصرة، بل الذي سيحدث عكس ذلك، فسينصر الله المؤمنين الصابرين المتقين، ويحيق مكر أولئك بهم؛ وعلل ذلك بقوله:{إن الله بما يعملون محيط}؛"أي: فهو يعد لكل كيد ما يبطله"[3]، والكيد إذا أُبطل لم يجد شيئاً.

وإذا كانت الحقيقة كذلك-وهو أن الكيد، والمكر السيئ؛ لا تتحقق به نجاة، ولا يحصل به غرض- فإن القارئ للقرآن سيجد تحذير الله الناس من استعمال هذا الأسلوب؛ يجد ذلك في قول الله تعالى:﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ

(١) في ظلال القرآن٥/٢٦٤٦.

(٢) تفسير الطبري٧/١٥٦.

(٣) نظم الدرر٢/١٤٢.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ النحل: ٤٥ – ٤٧؛[١] فالماكر يمكن أن"يأتيه عذاب الله من مكان لا يشعر به، ولا يدري من أين يأتيه"[٢] فمن يمكر مكراً سيئاً يُفْتَرَض أن يخاف من حدوث هذه العقوبات العظيمة، فإن الآية تُفْهِم أن المكر السيئ مجلبة لها.ومثل هذه الآية قول الله تعالى:﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فاطر: ٤٣؛ يعني: "أنه لا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكره هؤلاء المشركون إلا بهم"[٣]، فلم يحقق لهم المكر السيئ النجاة التي أرادوها، أو النصر الذي طلبوه؛ بل إن نتيجته تكون عكس ذلك تماماً؛ فيجلب إليهم المكروه من حيث أرادوا أن يوقعوا المكروه بغيرهم.

إن ما مضى من الكلام حقٌ وصدقٌ؛ كيف لا؟ ومصدره القرآن الكريم! وقد أكده الله تعالى بذكر القصص الواقعية الدالة على ذلك.ومن القصص التي وردت في هذا قصة أصحاب الفيل[٤]؛ فكيدهم الذي كادوه ذهب أدراج الرياح، بيّن الله تعالى ذلك في قوله:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾ الفيل: ١ – ٢؛ "أي: أبطل مكرهم وسعيهم"[٥]، قال البغوي:"{كيدهم} يعني مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة.وقوله: {في تضليل} عما أرادوا، وأضلَّ كيدهم حتى لم يصلوا إلى الكعبة، وإلى ما أرادوه بكيدهم"[٦].فأبرهة الأشرم أراد بهذا التصرف أن يحمي (القلّيس) من أن يعتدي عليها أحد من

---

(١) {يخسف بهم الأرض}: أي تغور حتى يدخلوا في الأرض السفلى.{تَقَلُّبِهِم}: ذهابهم ومجيئهم في تجاراتهم وأسفارهم.{يأخذهم على تخوف}: بأن يأخذ قرية بالعذاب؛ ويترك أخرى قريبة منها فيخوفها بذلك؛ وقيل: على تنقص؛ بأن لا يجعل العذاب يأتيهم دفعة واحدة.[انظر: بحر العلوم٢/٢٧٥].

(٢) تفسير الطبري١٧/٢١٢.

(٣) المرجع السابق٢٠/٤٨٤.

(٤) انظر: ملخص قصتهم في هذه الرسالة ص٦٣٥؛ حاشية(٣).

(٥) تفسير السمعاني٦/٢٨٥

(٦) معالم التنزيل٨/٥٤٠.

العرب، ويؤدبهم على ما فعلوه بكعبته، فلم يحصل على ما أراد من ذلك، بل كان فعله وبالاً عليه.

وقصة قرآنية أخرى؛ تبين انعكاس المكر السيئ على صاحبه؛ ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ النحل: ٢٦؛ وقد اختُلِفَ في صاحب القصة[1]، وحمل الآية على العموم أولى؛ فتكون عامة في جميع الماكرين المبطلين الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالغير[2]، فمكر الماكرين الذين يريدون إطفاء نور الحق لِيَسْلَم باطلهم؛ وينجوا من أهل الحق الذين يريدون تنبيه العقول إلى الحقيقية؛ صار مكرهم وبالاً عليهم؛ {وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ }؛ أي:"من حيث ظنوا أنهم في أمان منه"[3].

ويجد قارئ القرآن قصة فرعون مع موسى-عليه السلام- ماثلة أمامه في عددٍ من الآيات؛ فقد ذكر الله عن فرعون أنه أراد إبطال النور الذي جاء به موسى-عليه السلام- عن طريق محاولة التخلص من موسى -عليه السلام- نفسه ؛ حيث روّج لذلك بقوله الذي ذكره الله بقوله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

(١) تعددت أقوال المفسرين في ذلك؛ فقيل: هذا مثل؛ أي أهلك من قبلهم من الكفار كما أهلك من هدم مسكنه من أسفله.وقيل: المراد أنه هدم بنيان مكرهم من الأصل {فخر عليهم السقف} أي رجع وبال مكرهم إليهم. وقيل: هو النمرود؛ أشاد صرحاً ارتفاعه خمسة آلاف ذراعا في (٢٥٠٠م تقريباً)، ليقاتل أهل السماء-بزعمه، وهذا قول أكثر المفسرين، وقيل: بختنصر وقومه، وقيل: المقتسمين- المذكورين في سورة الحجر.[انظر:بحر العلوم٢/٢٧١، والنكت والعيون٣/١٨٥، ومفاتيح الغيب٢٠/١٧].

(٢) انظر:تفسير الخازن٣/٧٣.

(٣) الوجيز ص٦٠٤.

غافر: ٢٦؛ فأراد التخلص من موسى-عليه السلام- بقتله، وخطط لذلك خططاً ماكرة، ولكن كان مصير كيده الفشل، كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ غافر: ٢٥.وكيدهم {في تباب}؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ غافر: ٣٧، وهذا وصفٌ لكيده الذي أراد به-بزعمه- الإطلاع إلى إله موسى-عليه السلام-؛ قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وما احتيال فرعون الذي يحتال للاطلاع إلى إله موسى، إلا في خسار وذهاب مال وغبن، لأنه ذهبت نفقته التي أنفقها على الصرح باطلا، ولم ينل بما أنفق شيئا مما أراده، فذلك هو الخسار والتباب"[(١)].

وإذا كان الكيد والمكر السيئ لا يحقق النجاة في الدنيا؛ فلأن لا يحقق نجاة في الآخرة من باب أولى، وقد بيّن الله تعالى في كتابه عدم إغناء كيد الكفار عنهم شيئا في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ الطور: ٤٥ – ٤٦؛ قال البغوي:" أي: لا ينفعهم كيدهم يوم الموت، ولا يمنعهم من العذاب مانع"[(٢)]، وقال الطبري:يعني: مَكرهم؛ لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئا[(٣)]، وقال البيضاوي:"أي شيئا من الإغناء في رد العذاب"[(٤)].وكل هذه العبارات دالة على أن كيدهم لا ينجيهم مما يحل بهم يوم القيامة.

---

(١) تفسير الطبري٢١/ ٣٨٨.

(٢) معالم التنزيل٧/ ٣٩٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري٢٢/ ٤٨٦.

(٤) تفسير البيضاوي٥/ ٢٥٠.

فالكيد والمكر السيئ؛ وإن حقق لأهله ما يظنونه نجاحاً؛ كما لو أرادوا قتل نبي أو مصلح فتحقق لهم ذلك[1]؛ فهم يظنون أنهم تخلصوا منه، ونجوا ممن يعكر عليهم باطلهم، أو يضعِف مكانته في قلوب الناس، وما علموا أن هذا الارتفاع الذي حققوه إنما يُراد منه أن يكون سقوطهم أعظم، وأنهم جلبوا بذلك لأنفسهم ما لا طاقة لهم به من البلاء.

(١) قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢)} النساء.

٥- مجرد القوة العسكرية:

القوة العسكرية بمجردها؛ لا تحقق لأهلها-سواء كانوا مسلمين أو كفاراً- النجاة من ضربات أعدائهم، فهي إنما تكون سبباً صحيحاً إذا لم تكن مجردة، أما عندما يتجرد هذا السبب عن المؤثرات الأخرى الخفية[١] فإنه ليس سبباً تتحقق به النجاة من ضربات الأعداء- وليس معنى هذا الدعوة إلى إهمال هذا الأمر؛ كيف وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الأنفال:٦٠، ولكنها دعوة إلى عدم تجريد هذا السبب مما يُفَعِّلُه[٢]، ودعوة إلى تكميل أجزائه حتى يكون سبباً حقيقياً[٣]-.

وقد دلّ القرآن على أن القوة العسكرية المجردة لا تحقق لأهلها نجاة بمجردها، في آياتٍ كثيرة، بعضها ورد في المسلمين، وبعضها ورد في الكافرين.ومن الآيات الدالة على ما سبق؛ ما يلي:

قال الله تعالى-في يهود بني النضير، وهم أهل سلاح عظيم وافر، وحصون منيعة[٤]:﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ

---

(١) المؤثرات الخفية؛ هي ما وضعه الله من سنن ربانية؛ فمن سنن الله أن ينصر المؤمنين المتوكلين عليه، وقد ينصر كافراً على كافرٍ آخر لسبب- كما نصر الروم على الفرس زمن النبي-ﷺ-، وبين الله فرح المؤمنين بنصره ذلك، وكما ينصر سبحانه المظلومين؛ وإن كانوا كفاراً؛ على الظالمين؛ وإن كانوا مسلمين، وفي التاريخ الماضي والمعاصر ما تتكشف به بعض الحقائق الربانية للمتأملين.

(٢) راجع في هذه الرسالة: من أسباب النجاة: التوكل والأسباب المادة؛ ص٤٣٣.

(٣) فائدة؛ قال ابن القيم- في معرض الرد على الجبرية والقدرية-:"كيف يقول عاقل: إن جزء السبب أو الشرط؛ موجب مستقل لوجود الفعل، وهذا الموضع مما ضل فيه الفريقان...، والتحقيق أن قدرة العبد وإرادته ودواعيه جزء من أجزاء السبب التام الذي يجب به الفعل"[شفاء العليل ص١٤٣]، والمقصود هنا: إثبات أن جزء السبب ليس سبباً تاماً، واعتقاد أن جزء السبب موجبٌ لوجود المسبب جهل من قائله.

(٤) انظر: السير الحلبية٢/٦٣٧.

فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَٰٓأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ الحشر: ٢ قال البغوي: "أي: وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله"[١]، فأنتم {ما ظننتم أن يخرجوا}؛ لما لهم من السلاح والعز والمنعة[٢]، الأسلحة وافرة، والحصون محصنة، والجُدْران مُحْكَمة، ولكن ذلك لم يحقق لهم ما ظنوه، ولم تحصل لهم به النجاة، بل حصل لهم الذِل بأقسى صُوَرِه- كما وصف الله ذلك بقوله: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَٰٓأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾؛ لقد حدثت لهم مذلة عظيمة مشهورة في التاريخ[٣].

كما كشف القرآن عن مذلة أقوى وأكبر؛ كانت لمن هم أقوى سلاحاً وحصوناً من بني النضير، وهم بنو قريظة؛ قال الله فيهم: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ الأحزاب: ٢٦ – ٢٧؛ وقد سبق تناول هذه الآية[٤]، فلم تدفع عنهم صياصيهم-حصونهم- شيئاً، ولم تحقق لهم قوتهم نصراً، بل قتلوا شرّ قِتْلة، وأهينوا أعظم إهانة، سلبت أموالهم، وسبيت نساؤهم وذراريهم[٥].

وقد قال الله تعالى مخاطباً المشركين: ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ الأنفال: ١٩؛ قال الشوكاني: "أي لا تغني عنكم في حال من الأحوال ولو في حال كثرتها، ثم قال: {وأن الله مع المؤمنين}؛ ومن كان الله معه فهو المنصور، ومن كان الله

---

(١) معالم التنزيل٨/٧٠.

(٢) انظر: مغازي الواقدي١/٣٨٠.

(٣) انظر تفاصيلها في سيرة ابن هشام٤/١٤٣، والسيرة النبوية لابن كثير٣/١٤٥.

(٤) انظر: هذه الرسالة ص٤٣٧.

(٥) انظر تفاصيل ما حصل لبني قريظة في سيرة ابن هشام٤/١٩٢، والبداية والنهاية٤/١٣٣.

عليه فهو المخذول"[١]، فهذه الآية تبين أَنَّ كَثْرَةَ الْعَدَدِ وَحْدَهَا لا تَقْتَضِي النَّصْرَ فِي الْحَرْبِ؛ بَلْ هُنَالِكَ قُوَّةٌ مَعْنَوِيَّةٌ إِلَهِيَّةٌ قَدْ يَنْصُرُ بِهَا الْفِئَةَ الْقَلِيلَةَ عَلَى الْكَثِيرَةِ[٢]، قال السعدي:"وهذه المعية التي أخبر اللّه أنه يؤيد بها المؤمنين، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان، فإذا أديل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا تفريطا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا فلو قاموا بما أمر اللّه به من كل وجه، لما انهزم لهم راية انهزاما مستقرا ولا أديل عليهم عدوهم أبدا"[٣].فالمشركون في الغالب أكثر من المسلمين عدداً وعتاداً إلا أن ذلك لم ينجيهم من هزائم موجعة لهم[٤].

إذا كان القرآن قد كشف في الآيات السابقة؛ أن القوة العسكرية لم تنج أهلها من هزائم موجعة وقعت لهم من قوم كانوا أقلَّ منهم عدداً وعتاداً، فإن القرآن بيّن في آياتٍ أخر أن تجمع أهل القوة والعدد والعُدَدِ لم ينجهم أيضاً من وقوع الهزيمة الساحقة بهم؛ وذلك فيما ذكره من قصة الأحزاب؛ ذلك التجمع الهائل، الذي أراد به كفار قريش وغطفان واليهود وغيرهم القضاء على المسلمين، إلا أن هذا التجمع بدل أن يكون وسيلة نصرٍ لأولئك الأقوام، صار وبالاً عليهم، فأجلي بعده بنو النضير، وقتل مقاتلة بني قريظة، وفرَّت قريش وغطفان، لم ينج هؤلاء تجمعهم، ولا أسلحتهم، ولا عُدَدُهم وعتادهم، ولا تحالفهم مع اليهود من داخل المدينة.وقد ذكر الله تعالى تلك القصة بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم

(١) فتح القدير٢/٤٣٢.

(٢) انظر: تفسير المنار١٠/١٠٧.

(٣) تفسير السعدي ص٣١٨.

(٤) انظر تفاصيل غزوة بدر الكبرى في تاريخ الأمم والملوك٢/١٩.وسيرة ابن هشام٣/١٥٢.والبداية والنهاية٣/٢٨٩.

مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ الأحزاب: ٩ – ١٣؛ لقد كانوا بذلك شبه متأكدين أن قومهم ستلحق بأعدائهم المسلمين هزيمة ساحقة مستأصلة، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، بل حدث ما لم يكن بحسبانهم؛ قال الله تعالى-ذاكراً ما حدث-:﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴿٩﴾ ﴾ الأحزاب: ٩؛ ثم ذكر الله النتيجة التي حصلت من ذلك فقال:﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ الأحزاب: ٢٥ – ٢٧؛ لم ينجهم ما عندهم من القوة والعتاد من هزيمة موجعة حلت بهم[1].

وإذا كان ما سبق قد حدث لأقوام كفار بالله تعالى؛ فإن الله قد بيّن أن القوة العسكرية المجردة لا تنج المؤمنين من الهزيمة، وقد ذكّر الله المؤمنين بما حدث لهم في غزوة حنين[2] في قوله

---

(١) انظر تفاصيل غزوة الأحزاب في البداية والنهاية ٤/١٠٦.

(٢) حنين؛ اسم وادٍ-بين مكة والطائف- وقعت فيه المعركة المشهورة في السيرة؛ في شهر شوال، سنة ثمان للهجرة. حيث قاتل المسلمون وعددهم ١٢٠٠٠، كفار هوازن وثقيف؛ وعددهم ٤٠٠٠- على المشهور- ومع ذلك انهزم المسلمون، وكانوا قد أعجبوا بكثرتهم، فجزموا بأنهم لن يغلبوا، ففروا إلا أن الرسول-ﷺ- ثبت، ومعه نفرٌ قليل، فأمر النبي-ﷺ-العباس-رضي الله عنه- فنادى المنهزمين، فأقبلوا إليه كأنهم الإبل حنت على

سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ التوبة: ٢٥؛ قال الرازي: معنى الإغناء؛ إعطاء ما يدفع الحاجة، فقوله: {فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً}أي: لم تعطكم شيئاً يدفع حاجتكم"[١]، فكثرة عددهم لم تنجهم من الهزيمة؛ رغم قلة عدد عدوهم.قال الطبري:"يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد وشدة البطش، وأنه ينصر القليلَ على الكثير إذا شاء"[٢]، وقال السلمي:"لما عاينوا القوة من أنفسهم دون الله؛ رماهم الله بالهزيمة وضيَّق الأرض عليهم"[٣].ولا شك أن هذا درس عظيم تعلَّم منه المؤمنون أن القوة العسكرية ليست بمجردها سبباً للنجاة من الهزيمة، بل قد تكون أحياناً سبباً لحصولها، فإنها قد تورث الزهو والإعجاب، وهذه بداية الهزيمة؛ وقد نبَّه الله المؤمنين إليه، وحذرهم منه؛ فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ الأنفال: ٤٧ – ٤٨.ولما وُجد شيء من الإعجاب في نفوس بعض المؤمنين بقوتهم يوم حنين، وقعت الهزيمة أولاً، ولكن الله سلَّم ثانياً، فكانت درساً عظيماً استفادوه، وقد عبر ابن القيم عن هذا الدرس بقوله:"خُلْعَةَ النّصْرِ

أولادها، فنصر الله المسلمين، وأذل الكافرين.[انظر: مغازي الواقدي٣/٨٨٩، وتاريخ الإسلام للذهبي٢/٥٧١، وزاد المعاد٣/٤٠٨].

(١) مفاتيح الغيب١٦/ ١٨.

(٢) تفسير الطبري١٤/ ١٧٨.

(٣) تفسير السلمي١/ ٢٧٢.

إنَّمَا تَكُونُ مَعَ وِلَايَةِ الذّلّ وَالِانْكِسَارِ قَالَ تَعَالَى:{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلّةٌ} ،وَقَالَ:{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا}"[1].

وقد أثبتت الآيات السابقة أن مجرد القوة العسكرية، ليست سبباً في النجاة من الهزيمة، وليست سبباً في تحقيق المراد.

(١) زاد المعاد٣/ ١٩٦.

٦- مجرد الحذر واتخاذ الحيطة:

ما قيل في القوة العسكرية، يقال في الحذر واتخاذ الحيطة، فهو ليس سبباً تاماً تتحقق به النجاة، وإنما هو جزء سبب، وإذا ترتب حُكْمٌ على تمام أجزاء شيء معين، فإنه لا يلزم الحُكْم نفسه على جزء من تلك الأجزاء[1].وقد أمر الله بأخذ الحذر والحيطة في قوله سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ النساء: ٧١؛ وقوله سبحانه-في صلاة الخوف-:﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ النساء: ١٠٢، ثم بيّن نتيجة عدم أخذ الحذر والحيطة؛ فقال:﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾النساء:١٠٢؛ قال الطبري:"يقول: فيحملون عليكم وأنتم مشاغيل بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم حملة واحدة، فيصيبون منكم غِرَّة بذلك، فيقتلونكم ويستبيحون عسكركم"[2].فأخذ الحذر مطلوب، وهو جزء سببٍ في حصول النجاة، والمقصود هنا الدعوة إلى تكميل هذا الجزء بالتقوى، والتوكل على الله، وغير ذلك من الأمور التي تتم هذا الجزء وتُفَعِّله؛ أما إذا تجرد مما يتمه فإنه ليس سبباً في تحقيق النجاة، ويتضح هذا لمن تدبر قول فرعون الذي ذكره الله بقوله:﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الشعراء: ٥٣ ــ ٥٩؛ فقوله:{وإنا

---

(١) فالطهارة حكمٌ يحكم به على غسل أعضاء الوضوء كاملة، ومنها غسل الوجه، لكن غسل الوجه لوحده لا يسمى طهارة.

(٢) تفسير الطبري٩/١٦٢.

لجميع حاذرون}، وقرئت:{حذرون}[١]؛ ويرى بعض اللغويين أن معناهما مختلف؛ فمعنى حاذرون؛ مؤدُّون؛ أي: معهم أداة الحرب، وهي السلاح[٢]، ومعنى حذرون؛ أي: متيقظون[٣]، وقيل: هما بمعنى واحد[٤]، وقيل: الحاذر: الذي يحذر فور الحدث؛ فهو يجدِّد حذره.والحذر: الذي لا تلقاه إلا حذراً؛ كأن ذلك فيه خلقة[٥]، وقيل: الحاذر؛ الذي يحقق حذره منك بلبس السلاح[٦].

والقراءتان تدلان على أن فرعون كان متيقظاً مستعملاً الحذر؛ بأخذ أهبة الحرب، وهي لبس السلاح.وبيّن لقومه: أننا قوم من عادتنا التيقظ والحذر، واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج، سارعنا إلى حسم فساده[٧].

لقد كان حذره كأشد ما يكون الحذر، وكان متخذاً الحيطة والاستعداد، ولكن هذا الحذر لم يؤد به إلى النجاة من ذلك المحذور؛ بل كانت النتيجة عكس ما أراده تماماً، كان حذراً أن يعكَّر عليه تنعمه بذلك النعيم؛ فإذا به يُخرج من النعيم كلية، وفوق ذلك يورَّث نعيماً مثل ذلك النعيم لأعدائه الذين كان يستعمل كل ذلك الحذر خوفاً منهم؛ هذا ما بينه الله تعالى في الآيات السابقة بقوله:﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾الشعراء:٥٧-٥٩؛ قال ابن عاشور:" والمعنى: أن الله أرزأ أعداء موسى ما كان

---

(١) قال ابن مجاهد:" قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو:{حذرون}؛ بغير ألف، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: {حاذرون}؛ بألف"[السبعة٤٧١]

(٢) انظر:تفسير عبد الرزاق٢/٤٦٥، وتفسير الطبري١٩/٣٥٣، ومعاني القرآن للنحاس٥/٨٠.

(٣) انظر: معاني القرآن للنحاس٥/٨٠، والوجيز ص٧٩٠.وتهذيب اللغة؛ مادة(حذر).

(٤) انظر: معاني القرآن للنحاس٥/٨٠.

(٥) انظر:تفسير الطبري١٩/٣٥٣، ومعاني القرآن للنحاس٥/٨٠، وبحر العلوم٢/٥٥٥.وتهذيب اللغة؛ مادة(حذر)، ولسان العرب؛ مادة(حذر).

(٦) انظر: تفسير الخازن٣/ ٣٢٥.

(٧) الكشاف٣/ ٣١٥.

لهم من نعيم إذ أهلكهم وأعطى بني إسرائيل خيرات مثلها لم تكن لهم، وليس المراد أنه أعطى بني إسرائيل ما كان بيد فرعون وقومه من الجنات والعيون والكنوز لأن بني إسرائيل فارقوا أرض مصر حينئذ وما رجعوا إليها"[1]، وقال:"ضمير{وأورثناها} هنا؛ عائد للأشياء المعدودة باعتبار أنها أسماء أجناس، أي: أورثنا بني إسرائيل جنات وعيونا وكنوزا"[2]، والله تعالى قد أخبر أنه أراد أن يوقع بفرعون ما كان يحذره؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ القصص: ٥ – ٦؛ وهذا ما حدث فعلاً، ولم ينجهم حذرهم من القدر.

إن كانت الآيات السابقة بينت أن أعداء الله لا ينجيهم حذرهم من القدر؛ فإن هناك آيةٌ أخرى بينت أن أولياء الله –أيضاً– لا ينجيهم حذرهم من القدر؛ نجد بيان هذا في قول الله سبحانه عن يعقوب–عليه السلام–:﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ يوسف: ٦٧؛ كَانُوا ذَوِي صُورَةٍ وَجَمَالٍ، فإِذَا دَخَلُوا جَمَاعَةً مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدٍ وَهُمْ وَلَدُ رَجُلٍ وَاحِدٍ لفتوا انتباه الناس، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَفْتَرِقُوا فِي الدُّخُولِ إِلَيْهَا؛ خَشِيَ نَبِيُّ اللَّهِ يعقوب–عليه السلام– الْعَيْنَ عَلَى بَنِيهِ[3]، فاتخذ هذا التدبير حذراً أن يصيبهم أذىً، ولكنه يعلم أن الحذر والحيطة لا ينجيان من القدر؛ ولذا قال:{وما أغني عنكم من الله من شيء}؛ قال الطبري:"يَقُولُ:وَمَا أَقْدِرُ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكُمْ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ الَّذِي قَدْ قَضَاهُ عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ صَغِيرٍ

(١) التحرير والتنوير١٩/١٤٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: تفسير الطبري١٦/ ١٦٥.

وَلاَ كَبِيرٍ"، وقال: {إن الحُكْم إلا لله}؛"يَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَيَنْفُذُ فِيهِمْ حُكْمُهُ، وَيَقْضِي فِيهِمْ، وَلاَ يُرَدُّ قَضَاؤُهُ"، وقال: {عليه توكلت}؛ فِي حِفْظِكُمْ، لاَ عَلَى دُخُولِكُمْ مِصْرَ إِذَا دَخَلْتُمُوهَا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ[1].

لم يغن حذر من قدر، فقد أصابتهم مصيبة، ولم يغن عنهم حذر يعقوب شيئاً؛ قال الله تعالى مبيناً ذلك: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ يوسف: ٦٨؛ فأصابهم ما قدَّره الله عليهم، وكان يعقوب-عليه السلام- قد بيّن أنه لم يتخذ السبب منعاً لقدر الله من النفوذ-كما سبق بيانه، وقد صدّق الله تعالى قول يعقوب-عليه السلام-: {وما أغني عنكم من الله من شيء} بقوله هنا: {ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء}؛ قال الخازن"هذا تصديق من اللّه سبحانه وتعالى ليعقوب فيما قال"[2]، ثم قال الله تعالى بعدها: {إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها}؛ فاطمأن إلى أن ما أصابهم لم يكن بسبب عين، أو أن المكروه نالهم من أجل ذلك[3].

إن الواجب على المؤمن أن يقتدي بيعقوب-عليه السلام- في ذلك؛ فيعقوب-عليه السلام- كان ذا علمٍ، ولذا فهو اتخذ الحيطة والحذر، ولم يكن اعتماده على ذلك، فلم يجرده مما يجعله سبباً فعلاً، وجعل اعتماده على الله، لأنه هو الركن إن خانت الأركان، وما تفعل الأسباب إلا تنفيذاً لأمر الله، حيث إنه سبحانه أمر باتخاذ الأسباب، ونهى عن الاعتماد عليها، ولذا مدح الله تصرف يعقوب-عليه السلام- بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

---

(١) انظر: المرجع السابق١٦/ ١٦٦.

(٢) تفسير الخازن٢/ ٥٤١.

(٣) تفسير الطبري١٦/ ١٦٧.

يوسف:٦٨؛ قال الخازن:"المعنى أنا لما علمناه هذه الأشياء حصل له العلم بتلك الأشياء"[١]، وكان عاملاً بما علِم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما يعلمه، فهم محرومون من ذلك[٢]، فهو ليس من الذين اعتمدوا على مجرد الحذر واتخاذ الحيطة فقد تبين في قصة فرعون ما يبين خطأهم.

وهذه الخلاصة يحسن بها ختم الكلام عن الكلام في هذا السبب.

(١) تفسير الخازن٢/٥٤٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري١٦/١٦٨.

٧- ترك الجهاد في سبيل الله:

من جعل ترك الجهاد سبباً للنجاة، فقد عكس القضية تماماً، فقد سبق بيان أن الجهاد في سبيل الله-وليس تركه- سبب للنجاة[١]، ولكن الجهاد شاق على النفوس، وهو كُره لها؛ كما بين الله ذلك بقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٦؛ ولشدة هذه الشعيرة العظيمة على النفس، فقد يتعلل تارك هذه الشعيرة؛ بالعلل التي يظنها حقاً، وهي في الحقيقة وهمٌ أراد منه أن يبرر لنفسه ترك ما أوجب الله عليه.

أن مما يتعلل به بعض الناس لترك الجهاد: إرادة النجاة من القتل، وإرادة النجاة من الفتنة.وقد كشف القرآن عن ذلك، وأبطله، وبيّن أن النجاة حقاً إنما تكون بالجهاد، وأن العطب حقاً إنما يكون بتركه. وإليك إيضاح ذلك:

ترك الجهاد طلباً للنجاة من الفتنة:

عندما يتدبر قارئ القرآن ما يقرأ يجد أن هناك من طلب النجاة من الفتنة بترك الجهاد في سبيل الله؛ وذلك في قول الله تعالى-فاضحاً بعض أصناف المنافقين-:﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ التوبة: ٤٩؛ وسبب نزول الآية أن النبي-ﷺ-قال للجد بن قيس[٢] —

---

(١) انظر: مبحث أسباب النجاة الحقيقية من هذا الفصل؛ في هذه الرسالة؛ ص٤٤٩.

(٢) الجد بن قيس(...، ...) بن صخر بن خنساء بن سنان؛ أحد الذين شهدوا بيعة العقبة، وكان مع النبي-ﷺ- في بيعة الرضوان، إلا أنه لم يبايع تلك البيعة، فقد اختبأ تحت ناقته، وكان يُظن فيه النفاق، وفيه نزلت:{ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني}(التوبة؛٤٩). كان قد ساد في الجاهلية جميع بني سلمة، إلا أن النبي-ﷺ- انتزع منه السيادة، وجعلها في بشر بن البراء بن معرور-رضي الله عنه-، مات الجد في خلافة عثمان-رضي الله عنه-، ويقال: إنه تاب وحسنت توبته، ويضعِّف هذا أن أبا قتادة لزمه عند مرضه، ولم يصل عليه لما مات، وقال: ما كنت لأصلي عليه وقد قال في الحديبية كذا وكذا، وفي تبوك كذا وكذا- يعني من كلام المنافقين- .[انظر:مغازي الواقدي١/٥٩١، وتاريخ الإسلام٥/٣٧٨، وإمتاع الأسماع١٤/٣٤٣].

وهو يتجهز لغزوة تبوك-:"هَلْ لَكَ يَا جَدُّ الْعَامَ فِي جِلاَدِ بَنِي الأَصْفَرِ"[١]؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ تَأْذَنُ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي؟ فَوَاللَّهِ؛ لَقَدْ عَرَفَ قَوْمِي مَا رَجُلٌ أَشَدُّ عَجَبًا بِالنِّسَاءِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الأَصْفَرِ أَنْ لاَ أَصْبِرَ عَنْهُنَّ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ-، وَقَالَ : أَذِنْتُ لَكَ! وفيه نزلت الآية"[٢].ومعنى الآية: "أنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء؛ فلا يفتتن بهن"[٣]؛ فبيّن الله أن ما سقط به من الفتنة بتخلفه عن رسول الله-ﷺ-، والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم من الفتنة التي كان يخشاها بنساء بني الأصفر؛ وذلك أن "الفتنة التي فر منها بزعمه: هي فتنة محبة النساء وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها: هي فتنة الشرك والكفر"[٤]، وهذا ما بينه الله بقوله:{ألا في الفتنة سقطوا}[٥]؛ يعني أن"نفس إعراضه عن الجهاد الواجب، ونكوله عنه، وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد؛ فتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه؛ بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟"[٦]، فهو وقع في النفاق بفراره-بزعمه-من فتنة نساء بني الأصفر[٧].

---

(١) بني الأصفر؛ هم الروم -عند الأكثرين- سموا بذالك لأن أباهم الأول -روم بن عيصون- كان أصفر اللون، أو لأن جيشا من الحبشة غلب عليهم فوطئ نساءهم، فولد لهم أولاد صفر- ليسوا ببياض الروم، ولا بسواد الحبشة-.وردّ ابن حزم قول من قال: إن بني الأصفر هم الروم، وقال:إن بني الأصفر قوم من بني عيصاب بن إسحاق- غير يعقوب- وبنيه هم بني الأصفر، وكانوا يسكنون جبال الشراة التي بين الشأم والحجاز؛ وقد بادوا جملةً، وهم الذين غزاهم النبي-ﷺ- في غزوة تبوك.[جمهرة أنساب العرب٢/٥١١، الزاهر لأبي بكر الأنباري٢/١٣٢].

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٤/٢٨٧، وله طرق وروايات.وقد صحح الألباني بعض رواياته وطرقه، وحسّن بعضها، وضعّف أخر.[انظر: السلسلة الصحيحة٦/١٢٢٥].

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية٢٨/١٦٦.

(٤) إغاثة اللهفان٢/١٥٩.

(٥) انظر:تفسير الطبري١٤/٢٨٧.

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية٢٨/١٦٦.

(٧) زاد المعاد٣/١٧٠.

إن الله تعالى قد شرع الجهاد لإزالة الفتن؛ كما بيّن ذلك في قوله: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ البقرة: ١٩٣؛ وهذا يزعم أنه يترك الجهاد للنجاة من الفتنة؛ فيتضح من هذا أنه غارق في الفتنة؛ وهكذا كل"من ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة؛ فهو في الفتنة ساقط؛ بما وقع فيه من ريب قلبه، ومرض فؤاده، وتركه ما أمر الله به من الجهاد.فتدبر هذا؛ فإن هذا مقام خطر"(١).

ترك الجهاد طلباً للنجاة من القتل:

يفر بعض الناس من الجهاد في سبيل الله؛ يريد بذلك النجاة من القتل، فإن الجهاد سبب محسوس للقتل، ولكن المؤمن بالله تعالى يجزم أن الآجال محددة لا تزيد ولا تنقص؛ كما بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ الأعراف: ٣٤؛ وقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ الأنعام: ٦٠؛ قال الطبري:"يقول: ليقضي الله الأجل الذي سماه لحياتكم، وذلك الموت، فيبلغ مدته ونهايته"(٢)، وأما هذه المحسوسات التي جعلها الله أسباباً لانتهاء الآجال، فهي لا تقدِّم الأجل الذي قدَّره الله، ولا تؤخره، فهذه حقيقة يعتقدها المؤمن؛ ولكن الجاهل الذي لا يعلم شيئاً وراء الحس لا يؤمن بذلك، يرى أن الجهاد مقرِّب للأجل، ولذا فهو يتركه للنجاة من القتل؛ وقد أنكر الله تعالى على هؤلاء اعتقادهم؛ فقال: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ الأحزاب: ١٦؛ فالفرار من الجهاد لن ينجيكم من الموت، ولن تُمتعوا بتركه إلا بمقدار الأجل الذي قدَّره الله سابقاً؛ فلذلك

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية٢٨/١٦٧.

(٢) تفسير الطبري١١/٤٠٧.

قال: {وإذاً لا تمتعون إلا قليلا}؛ قال مقاتل: يعني إلى آجالكم لا تزدادوا عليها شيئاً[١]، وقال الطبري:"يقول: وإذا فررتم من الموت أو القتل؛ لم يزد فراركم ذلك في أعماركم وآجالكم، بل إنما تمتعون في هذه الدنيا إلى الوقت الذي كتب لكم، ثم يأتيكم ما كتب لكم وعليكم"[٢].

وأنكر الله على من اعتقد أن القتال في سبيله يقرِّب الأجل؛ فقال: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ النساء: ٧٧ ـ ٧٨؛ أي:"لا تهربوا من القتال، وتضعفوا عن لقاء عدوكم، حذرًا على أنفسكم من القتل والموت، فإن الموت بإزائكم أين كنتم، وواصلٌ إلى أنفسكم حيث كنتم، ولو تحصَّنتم منه بالحصون المنيعة"[٣].

إن الاعتقاد أن القتال يعجِّل المنيَّة؛ اعتقاد جاهلي، يعتقده الكفار، ويجب أن لا يكون المؤمن كذلك؛ قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ آل عمران: ١٥٦؛ فبيّن أن الكفار يظنون أنهم إذا لم يحضروا الحرب اندفع عنهم القتل ونجوا منه، فنهى الله المؤمنين أن يكونوا كأولئك الكفار، وبيّن في قوله: {وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ} أن تحرز الإنسان لا يمنعه من إتيان أجله[٤].

إن كل الآيات السابقة تبين الحقيقة، فمن ترك الجهاد بعد ذلك طلباً للنجاة من القتل؛ ففيه صفة من صفات الكفار، وأكثر ما يكون ذلك في المنافقين-المبغضين للإسلام وشرائعه-، وهم إن لم يقولوا ذلك صراحة فإنهم يكتمونه في أنفسهم؛ قال الله تعالى-كاشفاً ما يخفونه في

---

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان٣/٤٠.

(٢) تفسير الطبري٢٠/ ٢٢٨.

(٣) المرجع السابق٨/٥٥٢.

(٤) انظر: الوجيز؛ص ٢٣٩.

نفوسهم-: ﴿ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ آل عمران: ١٥٤؛ قال السمرقندي:" معناه أنهم وإن لم يخرجوا إلى العدو وقد قضى الله عليهم بالقتل؛ لخرجوا إلى مواضع قتلهم لا محالة؛ حتى ينفذ فيهم القضاء"(١)، ولم ينجهم قعودهم عن القتل(٢).قال السمعاني:"في هذا دليل على أن الأجل في القتل والموت واحد، كما قال أهل السنة"(٣).

وبهذا يتبين أن من جعل ترك الجهاد سبباً للنجاة، فهو واهمٌ حقاً، فترك الجهاد ليس سبباً للنجاة مطلقاً.

---

(١) بحر العلوم١/ ٢٨٣.

(٢) انظر:النكت والعيون١/ ٤٣١، والوجيز١/ ٢٣٨.

(٣) تفسير السمعاني١/ ٣٦٩.

٨- الدعاء بعد انتهاء وقته في حق الداعي:

سبق بيان أن الدعاء سبب من أسباب النجاة الصحيحة، ولكنه إنما يكون كذلك إذا كان في وقته، أما بعد انتهاء وقته فليس سبباً، وإذا كان الإيمان لا يحقق للإنسان النجاة بعد انتهاء وقته، فإن الدعاء ليس بأعظم منه.ولقد كشف القرآن عن ذلك من خلال ما بيّنه من حال أهل النار؛ فإنهم يدعون دعاء المضطر، بخضوع وإخلاص وصدق؛ أن ينجيهم الله من النار، ولكن ذلك لا ينجيهم مما هم فيه؛ لفوات الوقت الذي ينفعهم فيه مثل ذلك.

قال الله تعالى-ذاكراً دعاء أهل النار فيها-:﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ ﴾ المؤمنون: ١٠٧ – ١٠٨؛ قال عمرو بن مرة[١]: إن أهل النار يقولون: ادعوا ربكم، فليس أحد أرحم من ربكم، فيقولون:{رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ}؛ قال: فيجيبهم:{اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ}؛ فعند ذلك ييأسُون من كلّ خير، ويأخذون في الشهيق والوَيْل والثُّبور[٢]، فلم ينفعهم دعاؤهم، ولم ينجهم من العذاب.

إنهم يدعون الدعاء وهم يصطرخون من شدة ما بهم من الاضطرار، ولكن ذلك لا يجدي شيئا؛ كما بيّن الله ذلك في قوله:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧ ﴾ فاطر: ٣٦ – ٣٧؛ يعني أن "هؤلاء

---

(١) عمرو بن مرة؛(...-١١٦)؛ بن طارق، الجملي، ألمرادي، الهمداني(أبو عبد الله) الكوفي، الأعمى العابد، الإمام، القدوة، الحافظ، أحد الأعلام، كان يرى الإرجاء.قيل: لم يزل في الناس بقية حتى دخل عمرو بن مرة في الإرجاء، فتهافت الناس فيه.[انظر: سير أعلام النبلاء٥/١٩٦، ولسان الميزان٩/٣٨٦].

(٢) أخرجه عنه الطبري في تفسيره١٩/ ٧٨.

الكفار يستغيثون ويضجون في النار، يقولون: يا ربنا أخرجنا نعمل صالحًا"[١]؛ فلا تنجيهم هذه الاستغاثة مما هم فيه من العذاب، بل يقال لهم: ذوقوا فما للظالمين من نصير؛ يعني:"ما للمشركين من مانع يمنعهم من الله-ﷻ-"[٢]، وقال الشوكاني:" فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله ويحول بينكم وبينه"[٣]، فعلى هذا لا نجاة لهم مما هم فيه، ولم ينفعهم دعاؤهم.

لم ينجهم الدعاء الصريح بطلب النجاة؛ ولم ينجهم-أيضاً- أسلوب الاستعطاف؛ وهم قد استعملوه؛ كما بين الله ذلك بقوله:﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ غافر: ١١؛ فدعوا الله هنا بأسلوب الاستفهام:{فهل إلى خروج من سبيل}؛ وهذا يفيد الاستعطاف؛ أفاد ابن عاشور:الاستفهام مستعمل في العرض والاستعطاف لرفع العذاب[٤]، وقال: "والاستفهام بحرف:{هل}؛ مستعمل في الاستعطاف؛ وزيادة:{من}؛ يفيد تطلبهم كل سبيل للخروج"[٥].وجاء جواب طلب النجاة هذا في قوله:﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ غافر: ١٢؛ قال الطبري:" في هذا الكلام متروك استغني بدلالة الظاهر من ذكره عليه؛ وهو: فأجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك"[٦].وقال الشوكاني- في تقدير المحذوف-:"فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد؛ وذلك لأنكم كنتم إذا دعي الله..إلخ"[٧]، وحاصل

---

(١) تفسير الطبري٢٠/ ٤٧٦.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان٣/ ٧٨.

(٣) فتح القدير٤/ ٥٠٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير٢٤/١٦٠.

(٥) المرجع السابق.

(٦) تفسير الطبري٢١/٣٦٢.وانظر: الكشف والبيان٨/٢٦٨، ومعالم التنزيل٧/١٤٣.وتفسير القرطبي١٥/٢٩٨.

(٧) فتح القدير٤/٦٨٩.

الكلام أنه لم يصرح في الآية بعدم إجابة طلبهم، وإنما ذكر السبب الذي لأجله لا يجابون.هم طلبوا الخروج من النار بأسلوب الاستعطاف؛ "فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم: وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد الله، وإشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدعاء"(١).

ومثل الآية السابقة؛ دعاؤهم الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ الشورى: ٤٤.

وإذا كانوا قد استعملوا دعاء الله مباشرة، وعددوا الأساليب في طلبهم الخروج من النار، ولم تتحقق لهم النجاة في شيء من ذلك؛ فقد أرادوا أن يتوسلوا إلى الله بدعاء غيرهم من الملائكة، لكن لم يحصلوا على ذلك، ولم يتحقق لهم شيء منه؛ فضلاً أن تتحقق لهم به النجاة، فتوسلوا بمالك-خازن النار-، ليدع لهم ربه؛ وقد ذكر الله ذلك بقوله: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ الزخرف: ٧٧؛ قال السمرقندي:"يعني: ادع لنا ربك لقبض أرواحنا"(٢)، وقال الزمخشري:"سألوا مالكا أن يسأل اللّه تعالى القضاء عليهم"(٣)، فهم توسلوا بمالك، ولم يدعوه؛ لأنهم في ذلك الوقت يعلمون أنه لا يجيب الدعاء إلا الله، عكس ما كانوا عليه في الدنيا، حينما كانوا يظنون أن أحداً يجيب الدعاء غير الله.قال السعدي:"{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد.ف{قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبدا.فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غما إلى غمهم"(٤).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) بحر العلوم٣/ ٢٥٢.

(٣) الكشاف٤/ ٢٦٥.

(٤) تفسير السعدي ص ٧٧٠.

وفي محاولة توسل أخرى؛ ذكر الله تعالى محاولتهم التوسل بدعاء خزنة جهنم من الملائكة؛ فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ غافر: ٤٩؛ لكن لم تأتهم إجابة خزنة النار وفق ما يشتهون، بل جاءت لتزيدهم بؤساً وشقاء؛ فقالوا-كما ذكر الله عنهم-:﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ غافر: ٥٠؛ فجواب الملائكة لهم تضمن أمرين:

أولهما: بيان أنهم لن يدعوا لهم؛ وذلك مفهوم قولهم:{فادعوا}؛ قال الواحدي:"أي: فادعوا أنتم إذا؛ فإنا لن ندعو الله لكم"[(١)]، وقال الزمخشري:"ليس قولهم:{فَادْعُوا}؛ لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة"[(٢)].وأفاد ابن عطية أن هذا على معنى الهزء بهم؛ كأنهم قالوا: فادعوا أنتم أيها الكافرون الذين لا معنى لدعائهم[(٣)].

ثانيهما- وهو الأشد- قولهم[(٤)]:{وما دعاء الكافرين إلا في ضلال}؛ أي: في هلاك وبطلان وضياع[(٥)]، وهو باطل لاغٍ[(٦)]، والمراد: بيان أنه لا ينفع[(٧)]، وأنه غير مقبول، ولا

---

(١) الوجيز ص٩٤٧.وانظر:معالم التنزيل٧/١٥١، وزاد المسير٧/٢٣٠.

(٢) الكشاف٤/١٧٢.

(٣) المحرر الوجيز٤/٦٣٠.وانظر:الجواهر الحسان٤/ ٧٦، والتفسير القرآني للقرآن١٢/ ١٢٤٦.

(٤) قيل: إن قوله:{وما دعاء الكافرين إلا في ضلال}؛ من كلام الخزنة، وقيل: من كلام الله تعالى.[انظر:المحرر الوجيز٤/٦٣٠، والبحر المحيط٩/٢٦٤، والجواهر الحسان٤/٧٦، وروح المعاني١٢/٣٢٩، والتحرير والتنوير٢٤/ ٢١٤].

(٥) انظر:الوجيز ص٩٤٧، وتفسير السمعاني٥/٢٥، وزاد المسير٧/٢٣٠، وتفسير الخازن٤/ ٧٦.

(٦) انظر: تفسير السعدي ص ٧٣٩.

(٧) انظر: معالم التنزيل٧/١٥٢، وزاد المسير٧/٢٣٠، وتفسير الخازن٤/ ٧٦، والبحر المحيط٩/٢٦٤.

مستجاب[١]، وأنه لا أثر له البتة[٢].قال الشوكاني:"لا ينفعهم بوجه من الوجوه؛ بل هو ضائع ذاهب"[٣].

وبيّن بعض المفسرين أن سبب ذلك فوات الوقت؛ قال ابن عجيبة:"لأنهم دعوا في غير وقته"[٤]، وقال الزمخشري: لأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع[٥].قال الألوسي: والحق أن الآية في دعاء الكفار يوم القيامة، وأما في الدنيا فقد يستجاب للكافر[٦]، فعدم استجابة دعائهم نظراً لفوات وقت الإجابة في حقهم.

يجد القارئ فيما سبق أن أهل النار قد نوّعوا الدعاء، وعددوا أساليبه، ووسائله، غير أن كل ذلك لم يجد شيئاً؛ لفوات الوقت، وقد ورد في بعض الآثار بيان أنهم سلكوا في ذلك ترتيباً معينا[٧]؛ ولكن لم ينفعهم ذلك شيئاً.

---

(١) انظر:تفسير السمعاني٥/٢٥، ومعالم التنزيل٧/١٥٢، وتفسير ابن كثير٧/ ١٤٩.

(٢) غرائب القرآن٦/ ٣٨.

(٣) انظر: روح المعاني١٢/ ٣٢٩.

(٤) البحر المديد٦/٤٧٣.

(٥) الكشاف٤/١٧٢.

(٦) روح المعاني١٢/ ٣٢٩.

(٧) عن أبي الدرداء -ﷺ-قال:"يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الجُوعُ؛ فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ؛ فَيَسْتَغِيثُونَ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ -لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ-، فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ؛ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ، فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ الغَصَصَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّرَابِ؛ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشَّرَابِ؛ فَيُرْفَعُ إِلَيْهِمُ الحَمِيمُ بِكَلاَلِيبِ الحَدِيدِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ، فَإِذَا دَخَلَتْ بُطُونَهُمْ قَطَّعَتْ مَا فِي بُطُونِهِمْ، فَيَقُولُونَ: ادْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ، فَيَقُولُونَ :{أَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ}.قَالَ:فَيَقُولُونَ: ادْعُوا مَالِكًا؛ فَيَقُولُونَ:{يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}، قَالَ:فَيُجِيبُهُمْ:{إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}-قَالَ الأَعْمَشُ: نُبِّئْتُ أَنَّ بَيْنَ دُعَائِهِمْ وَبَيْنَ إِجَابَةِ مَالِكٍ إِيَّاهُمْ أَلْفَ عَامٍ- قَالَ:فَيَقُولُونَ:ادْعُوا رَبَّكُمْ؛ فَلاَ أَحَدَ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَيَقُولُونَ: {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا

٩- القرابة من الصالحين:

تتعلق أذهان بعض الناس بالقرابة من الصالحين؛ فيجعل ذلك سبباً ينجي من عذاب الله الدنيوي، أو الأخروي، وقد بيّن الله تعالى أن هذا سببٌ متوهم لا حقيقي، فإن القرابة من الصالحين لا تدفع عن الفاجر شيئاً: لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

عدم إنجاء القرابة لقراباتهم الكفار في الآخرة:

يقيس بعض الناس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، ويقيسون ما عند الله من العذاب على ما عند الخلق، وهم يشاهدون في الدنيا أن القرابة إذا كانوا أهل شهامة ونخوة فإنهم ينفعون أقربائهم، ويدفعون عنهم ما يستطيعون من عقوبات الخَلْق.

إن قياس الآخرة على الدنيا في هذا الأمر؛ يوصل إلى نتيجة خاطئة، فأقرباء الإنسان في الآخرة لا ينفعونه، بل يفرون منه غاية الفرار؛ وقد بيّن الله ذلك بقوله: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ عبس: ٣٤ – ٣٧؛ قال السمعاني:"يفر منهم لأنه لا يمكنه أن ينفعهم وينتفع بهم"[(١)]، وهو منشغل بأمر نفسه؛ قال قتادة:" أفضى إلى كلّ إنسان ما يشغله عن الناس"[(٢)]، فلا أحد يهمه غير أمر نفسه، وقد أمر عمر بن الخطاب-ﷺ- كعب الأحبار أن يحدث بما يخوف، فقال كعبٌ:"والذي نفسي بيده، إن لجهنم يوم القيامة لزفرة ما من ملك مقرب، ولا نبي مرسل، إلا يخر لركبتيه، حتى إن إبراهيم خليل الله ليقول: نفسي نفسي، حتى لو كان لك عمل سبعين نبيا لظننت أنك لا

فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ}؛ قَالَ: فَيُجِيبُهُمْ: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ}.قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَئِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَأْخُذُونَ فِي الزَّفِيرِ وَالحَسْرَةِ وَالوَيْلِ".أخرجه الترمذي في سننه ٧٠٨/٤ حديث٢٥٨٦.أفاد الترمذي أن المعروف في الحديث عدم الرفع، ثم قال:وقطبة بن عبد العزيز هو ثقة عند أهل الحديث.وقال الألباني-عن الحديث-:ضعيف.[انظر:ضعيف الجامع؛ حديث٦٤٤٤].

(١) تفسير السمعاني١٦٢/٦.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره٢٣٢/٢٤.

تنجو"[١]، وقد جاء في حديث الشفاعة الطويل أن كل نبي من المعتذرين عن الشفاعة؛ يقول: "نفسي نفسي"[٢]، وفي بعض الأحاديث أن كل واحدٍ منهم-عليهم السلام- يكررها أربع مرات: "نفسي نفسي نفسي نفسي"[٣].فكل واحدٍ من الخلق قد انشغل بشأن نفسه عن غيره؛ فلا الوالد ينجي ولده، ولا الولد ينجي والده؛ كما بيّن الله ذلك بقوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾لقمان: ٣٣؛ قال الطبري:"لا يغني والد عن ولده، ولا مولود هو مغن عن والده شيئا؛ لأن الأمر يصير هنالك بيد من لا يغالب، ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا"[٤]، فالأنساب لا أثر لها في ذلك اليوم، كما بيّن الله ذلك بقوله:﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾المؤمنون: ١٠١؛ وليس المراد في قوله:{فلا أنساب}؛ نفي النسب في الحقيقة، بل المراد نفي حكمه؛ وذلك أن من حق النسب أن يقع به التعاطف والتراحم، ولكن الأمر في الآخرة مختلف؛ فكل أحد يكون مشغولاً بنفسه، وذلك يمنعه من الالتفات إلى النسب[٥]، بل قال قتادة:"لَيْسَ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى الإِنْسَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور ص٢٤٠، حديث٤١٩.قال الألباني:صحيح.[انظر: صحيح الترغيب والترهيب٣/٢٥٧حديث٣٧٠٤].

(٢) أخرجه البخاري٤/١٦٤حديث٣٣٤٠:كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل {ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه}، ومسلم١/١٨٤ حديث١٩٤:كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده٢/٤٣٥حديث٩٦٢١.

(٤) تفسير الطبري٢٠/١٥٨.

(٥) انظر: تفسير الرازي٢٣/١٠٦.

مِنْ أَنْ يَرَى مَنْ يَعْرِفُهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَدُورَ لَهُ عَلَيْهِ شَيْءٌ"[١]، وأكد الله هذا المعنى في قوله سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ البقرة: ١٦٦، قال البغوي: "{الأسباب}؛ أي: الصلات التي كانت بينهم في الدنيا من القرابات والصداقات"[٢].

بل إن الله ذكر ما هو أعظم من هذا كله، وهو أن المجرم من الناس؛ يود لو أنه أدخل كل قرابته النار مقابل أن ينجو هو، ويكونون هم فداء له؛ قال الله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ المعارج: ١١ – ١٤؛ قال الطبري: يُعْلِم سبحانه عباده أن الكافر من عظيم ما ينزل به يومئذ من البلاء يفتدي نفسه، لو وجد إلى ذلك سبيل بأحب الناس إليه، كان في الدنيا، وأقربهم إليه نسبا[٣]، قال قتادة: "الأحبّ فالأحبّ، والأقرب فالأقرب من أهله وعشيرته"[٤]، والمجرم: هو الكافر، وقيل: يتناول كل مذنب[٥]، ولكن ذلك لا ينجي؛ كما بيّن الله في الآية التي تليها فقال: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ المعارج: ١٥؛ قال الزمخشري: "{كلا}؛ ردّع للمجرم عن الودادة، وتنبيه على أنه لا ينفعه الافتداء؛ ولا ينجيه من العذاب"[٦].

إن الآيات السابقة تناولت القرابة الصالحين، فهم لا ينجون قريبهم الكافر، ولو كان القريب الصالح ينجي قريبه الكافر؛ لأنجى إبراهيم -عليه السلام- أباه، وأنجى نوحٌ -عليه السلام- ابنه، وقد عَلِم كلُّ مسلم أن ذلك لا يكون.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/٧٣.

(٢) معالم التنزيل ١/١٧٩.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/٦٠٦.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/٦٠٦.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب ٣٠/١١٢.

(٦) الكشاف ٤/٦١٠.

والآيات السابقة تناولت بعمومها نفي نفع القرابة الصالحين لقريبهم الكافر، فهي لم تُخَصَص بالقرابة العاصين، وقد ورد في القرآن ما يخص نفي نفع القرابة الصالحين لقريبهم الكافر؛ والنص على القرابة الصالحين مهمٌ؛ لأنه يحتمل أن يقول قائل:إن الآيات الواردة في نفي نفع القرابة لقريبهم، إنما هي في القرابة غير الصالحين؛ وأما القرابة الصالحون فينفعون قريبهم في الآخرة، لأن الصالحين أهل وفاء وكرم؛ فجاء القرآن بنفي ذلك؛ وذلك في قول الله تعالى:﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ التحريم: ١٠؛ قال ابن كثير: قوله:{تحت عبدين من عبادنا صالحين}؛ يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط؛ {فخانتاهما}؛ أي: في الإيمان- لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة- فلم يجد ذلك كله شيئا، ولا دفع عنهما محذورا[1]، وقال السمرقندي:" يعني لم يمنعهما صلاح زوجيهما مع كفرهما{من الله شيئاً}؛ يعني من عذاب الله شيئاً، فكذلك كفار مكة وإن كانوا أقرباء النبي-ﷺ-لا ينفعهم صلاح النبي-ﷺ-، وكذلك أزواجه إذا خالفنه"[2]، وقال الماوردي:"أي: لم يدفع نوح ولوط -مع كرامتهما على الله- عن زوجتيهما لما عصتا شيئاً من عذاب اللّه، تنبيهاً بذلك على أن العذاب يُدفع بالطاعة دون الوسيلة"[3]، وأفاد الزمخشري أن الله تعالى ضرب هذا المثل بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج -إغناء مّا- من عذاب اللّه؛ ليبين أن ليس في المسألة محاباة لأقرباء الصالحين، فإذا كان هؤلاء الأقرباء كفاراً معادين للمؤمنين فسيعاقبهم عقوبة مثلهم، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب، أو وصلة صهر؛ لأن عداوتهم لهم، وكفرهم باللّه ورسوله؛ قطع العلائق، وبتَّ الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء

(١) انظر: تفسير ابن كثير٨/ ١٧١.

(٢) بحر العلوم٣/٤٤٩.

(٣) النكت والعيون٦/٤٧.وانظر: تفسير القرطبي١٨/ ٢٠٢.

اللّه[١].قال ابن الجوزي:"هذه الآية تقطع طمع من ركب المعصية ورجا أن ينفعه صلاح غيره"[٢].

عدم إنجاء القرابة من العذاب الدنيوي:

نبّه الله على هذا المعنى؛ فيما ذكره من قصة ابن نوح؛ حيث بيّن أنه لم تنفعه شفاعة أبيه في دفع عذاب الله الدنيوي عنه؛ فإن نوحاً-عليه السلام- استكشف عن حال ابنه، أو أنه دعا الله تعالى أن ينجي ابنه[٣]-حين أنزل العذاب بقومه-؛ فقال ما بيّنه الله بقوله:﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ هود: ٤٥؛ فجاء جواب الله تعالى قوياً، زاجراً نوحاً-عليه السلام- أن يدعوا دعاء ليس صواباً؛ قال الله:﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ هود: ٤٦، أفاد الزمخشري أن هذا إعلام من الله لنوح-عليه السلام-"أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم، لا لأنهم أهلك وأقاربك، وإنّ هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوّتك"[٤]، ومما يزيد من قوة نفي الآية لكون القرابة من الصالحين سبباً لنجاة الكافر من الهلاك؛ أن ابن نوحٍ لم يكن الأمر في حقه بمجرد قرابة، بل قرابة، ودعاء، ومع ذلك لم تنجه مما حلّ به.

وبهذا يتبين أن التعلق بهذا السبب للنجاة من ما عند الله من العذاب؛ تعلّق بغير متعلق صحيح، فالقرابة من الصالحين ليست سبباً للنجاة إلا في بعض أذهان من لم تتنور قلوبهم بنور القرآن الذي أنزله هدى للناس.

---

(١) اختلف المفسرون في سؤال نوح-عليه السلام- ربه هنا؛ هل كان دعاء بنجاة ابنه؛ وعلى هذا يكون سؤاله حين أبى الابن ركوب السفينة، قبل غرقه؛ وذهب إلى هذا الواحدي[انظر: الوجير ص٥٢٢]، أو أنه سؤال استكشاف؛ وذهب إليه ابن كثير؛ فقال:"هَذَا سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَكَشْفٍ"[انظر: تفسيره٤/٣٢٥]؛ قال ابن عطية:"وهو محتمل، والأول أليق"[المحرر الوجيز٣/١٧٦]؛ وعلى أي التفسرين؛ فلا يختلف إفادة الآية قطع طمع من ركب المعصية ورجا النجاة بصلاح غيره.

(٢) زاد المسير٨/٣١٥.

(٣) الكشاف٢/٣٩٩.

(٤) الكشاف٢/٣٩٩.

١٠- استغفار الرسول ﷺ لأحدٍ بكذبه عليه:

إن استغفار الرسول ﷺ لأحدٍ من أكبر أسباب حصول النفع في الدنيا والآخرة، لمن كان مؤمنا صادقاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ النساء: ٦٤؛ ولكن استغفار الرسول-ﷺ-لا ينفع الكافر، ولا المعتذر الكاذب؛ وليس استغفار الرسول -ﷺ-لهؤلاء سبباً لنجاتهم، بل إن استغفار الرسول-ﷺ-لا يدفع عنهم شيئاً.وقد كشف الله عن ذلك في كتابه العظيم.فالكافر لن يغفر الله له، ولو استغفر له الرسول-ﷺ-، ويتضح هذا بتأمل قول الله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ التوبة: ٨٠؛ فاستغفار الرسول-ﷺ-للمنافقين لن ينجيهم، ولن يدفع عنهم شيئاً؛ لأنهم كفروا-باطناً- بالله ورسوله-ﷺ-؛ ومعنى الآية واضحٌ؛ وهو أن الله "لن يغفر اللّه لهم؛ استغفرت لهم، أم لم تستغفر لهم"[1].ويجد قارئ الآية أن الله تعالى بيّن العلة التي لأجلها لن يغفر للمنافقين ولو استغفر لهم الرسول-ﷺ-في قوله سبحانه:{ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله}؛ يعني: أن "ترك العفو عنهم، وترك المغفرة لهم؛ من أجل أنهم اختاروا الكفر على الإيمان باللّه ورسوله"[2]، فهذا في نفي نفع استغفار الرسول-ﷺ-للكافر.

أما نفي نفع استغفار الرسول-ﷺ-للمعتذر الكاذب في اعتذاره؛ فقد بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ الفتح: ١١ - ١٢؛ فهؤلاء الأعراب طلبوا من

---

(١) الكشاف٢/ ٢٩٥.

(٢) تفسير القرطبي٢/ ٣٩٠.

رسول الله -ﷺ-أن يستغفر لهم تخلفهم عن الخروج معه[١]، وذكروا له أن أموالهم وأهليهم هي التي شغلتهم عن الخروج؛ أكذبهم الله بقوله:{يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم}[٢]؛ ثم بيّن الحقيقة بقوله:{بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً}؛ قال الطبري:" يقول -تعالى ذكره-: لهؤلاء الأعراب المعتذرين إلى رسول الله-ﷺ-عند منصرَفه من سفره إليهم بقولهم:{شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا}؛ ما تخلفتم خلاف رسول الله-ﷺ-حين شخص عنكم، وقعدتم عن صحبته؛ من أجل شغلكم بأموالكم وأهليكم، بل تخلفتم بعده في منازلكم؛ ظنا منكم أن رسول الله-ﷺ-ومن معه من أصحابه سيهلكون، فلا يرجعون إليكم أبدا؛ باستئصال العدوّ إياهم، {وزيِّن ذلك في قلوبكم}؛ وحسَّن الشيطان ذلك في قلوبكم، وصححه عندكم؛ حتى حسُن عندكم التخلف عنه، فقعدتم عن صحبته، {وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ}؛ يقول: وظننتم أن الله لن ينصر محمدا-ﷺ-وأصحابه المؤمنين على أعدائهم، وأن العدوّ سيقهرونهم ويغلبونهم فيقتلونهم"[٣]، فهذه هي الحقيقة، وهم قد كذبوا من أجل أن يستغفر لهم الرسول-ﷺ-.

إن الحقيقة أنهم كاذبون في اعتذارهم، وإنما اعتذروا كذباً ليستغفر لهم الرسول-ﷺ-؛ وقد أعلم الله تعالى الناس بأن من اعتذر اعتذاراً كاذباً ليستغفر له الرسول-ﷺ-فاستغفر له؛ -بحكم أنه لا يعلم الغيب- فإن هذا الاستغفار لن ينجي الكاذب من العذاب، لأن الله يعلم الحقائق وبواطنها.

أمر الله رسوله-ﷺ-أن يوضح هذا للناس أن استغفاره للمعتذر الكاذب؛ لا يجدي شيئاً، ولا ينجيهم من العذاب والسوء؛ إن كان الله قد قدّره عليهم[٤]؛ في قوله -ضمن الآيات

---

(١) حينما خرج النبي-ﷺ-إلى الحديبية؛ استنفر الأقوام الذين بين مكة والمدينة؛ من مزينة، وجهينة، وبني بكر، فقالوا: يخرج محمدٌ بأكلة رأس[يعني أنهم قليل] إلى قوم موتورين [أي:قتل أقرباؤهم فهم يريدون الثأر لهم] معدين، ومحمد لا سلاح معه ولا عدة؛ فتخلفوا واعتلوا بتشاغلهم بأهليهم وأموالهم.وكان النبي-ﷺ-قد استنفرهم مع أنه لم يخرج لقتال، لكن استنفرهم حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت.[انظر:مغازي الواقدي٢/٦١٩، وسبل الهدى والرشاد في السيرة للصالحي٥/٦٦].

(٢) انظر: الكشف والبيان٩/٤٥.

(٣) تفسير الطبري٢٢/٢١٣.

(٤) انظر:التحرير والتنوير٢٦/١٣٧.

السابقة-: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ الفتح: ١١؛ "أي: من يدفع عنكم عذاب الله، ومن يمنعكم من الله إن أراد عقوبتكم"(١)، قال الطبري:"يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الأَعْرَابِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ لِتَخَلُّفِهِمْ عَنْكَ: إِنْ أَنَا اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ، ثُمَّ أَرَادَ اللَّهُ هَلاَكَكُمْ أَوْ هَلاَكَ أَمْوَالِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ، أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا؛ بِتَثْمِيرِهِ أَمْوَالَكُمْ، وَإِصْلاَحِهِ لَكُمْ أَهْلِيكُمْ؛ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ مَا أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ؟"(٢).وقال برهان الدين البقاعي:" كان فعلهم هذا من تخلفهم واعتلالهم وسؤالهم الاستغفار ظناً منهم أنهم بذلك يدفعون عن أنفسهم المكروه ويحصلون لها المحبوب"(٣)، وأفاد السعدي: أن طلبهم الاستغفار من رسول الله-ﷺ-يدل-ظاهراً- على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنب، واعتقادهم أنهم تخلفوا تخلفا يحتاج إلى توبة واستغفار، فلو كان هذا الذي في قلوبهم، لكان استغفار الرسول نافعا لهم، لأنهم قد تابوا وأنابوا، ولكن الذي في قلوبهم أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء، فلم ينفعهم استغفار الرسول-ﷺ- لهم(٤)، وقال ابن عاشور: في الآية أمر من الله لنبيه-ﷺ-أن يعلمهم أن استغفاره الله لهم؛ لا يكره الله على المغفرة، بل الله يفعل ما يشاء إذا أراده، فإن كان أراد بهم نفعا نفعهم، وإن كان أراد بهم ضرا ضرهم، فما كان من النصح لأنفسهم أن يتورطوا فيما لا يرضي الله ثم يستغفرونه(٥).

من سبق نقل كلامهم من المفسرين؛ جعلوا معنى الآية في نفي نفع استغفار الرسول-ﷺ-؛ لمن اعتذر كاذباً، وهناك من المفسرين من له رأي آخر (٦)، ولكن هذا التفسير هو الذي يناسب المقصود هنا.

---

(١) تفسير السمعاني٥/١٩٥.

(٢) تفسير الطبري٢٢/٢١١.

(٣) نظم الدرر٧/١٩٧.

(٤) تفسير السعدي ص٧٩٢.

(٥) انظر:التحرير والتنوير٢٦/١٣٧.

(٦) هناك من المفسرين من جعل قوله تعالى:{قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً}؛ مراداً به نفي نفع التخلف، لا نفي نفع الاستغفار؛ فتفسير الآية عند هؤلاء: أن أولئك الأعراب ظنوا أن تخلفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضر، أو يجعل لهم النفع بالسلامة في أنفسهم وأموالهم،

ومما سبق يتبين أن استغفار الرسول-ﷺ-لمن اعتذر كاذباً، ليس سبباً حقيقياً في النجاة، وإنما هو سبب متوهم في عقول لم تستنر بهدي القرآن الكريم في هذا الأمر العظيم.

فأعلمهم الله عدم صحة ذلك.[انظر: مفاتيح الغيب٢٨/٧٧، وتفسير الخازن٤/١٥٧، واللباب١٧/٤٨٩].

١١- طاعة الزعماء والعلماء والأصدقاء والأنظمة والتشريعات؛ في معصية الله:

بيّن القرآن حقيقة عظيمة من أمور الآخرة، وهي أن هناك أقواماً يدخلون النار، بسبب مخالفتهم أوامر الله تعالى، فيتشبثون بأمر يرجون به نجاتهم مما هم فيه، وهو أن مخالفتهم أوامر الله لم تكن إلا طاعة للمشايخ والأمراء؛ فيتوسلون إلى الله بذلك لعله ينجيهم، إلا أن هذا لا ينفعهم، ولا ينجيهم من عذاب الله؛ بل يكون زيادة بؤس لهم، إذ يعرفون حين دخولهم النار أنه كان بإمكانهم عدم فعل ذلك-لو أراد الله نجاتهم- فيزدادون بؤساً بمقتهم أنفسهم.وقد دل القرآن على هذه المعاني العظيمة في آياتٍ كريمة عديدة.

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٦ – ٦٧؛ قال ابن كثير:"أي: اتبعنا السادة: وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل لأجلهم، واعتقدنا أن عندهم شيئا، وأنهم على شيء؛ فإذا هم ليسوا على شيء"[(١)]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-عن الآية-"فيها نصيب لكل من اتبع أحدا من الرؤوس فيما يخالف الكتاب والسنة"[(٢)].قال ابن القيم:"تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم"[(٣)].

كان عذر أولئك الأقوام:{إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا}؛ مقصودٌ منه الحصول على أمرين: تخفيف العذاب عنهم، ومضاعفة العذاب على أولئك، قال السمرقندي- في سبب قولهم{إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا}-:"يعني عذبهم بذنوبهم، وارفع عنا بعض العذاب"[(٤)]، وقال ابن عاشور- في بيان أنهم أرادوا الأمرين من هذه الجملة-:المقصود **الإفضاء**

(١) تفسير ابن كثير٦/٤٨٤.

(٢) درء التعارض٥/٣١٨.

(٣) الرسالة التبوكية ص٤٦.

(٤) بحر العلوم٣/٧٢.

إلى جملة: {ربنا آتهم ضعفين من العذاب}، ومقصود من هذا الخبر -أيضا- **الاعتذار** والتنصل من تبعة ضلالهم بأنهم مغرورون مخدوعون"[١].

لكن الأول -وهو نجاتهم من بعض العذاب- لن يحصلوا عليه، فيقنعون بالثاني، مع أنه لا يبري عليلاً، قال برهان الدين البقاعي: "{وقالوا} لما لم ينفعهم شيء، متبردين من الدعاء على من أضلهم بما لا يبرئ عليلاً ولا يشفي غليلاً: {ربنا...إلخ}"[٢].

قال ابن القيم-عن الآية: "هذا نص في بطلان التقليد"[٣]، وقال الشوكاني: " وفي هذا زجر عن التقليد شديد، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، والتحذير منه، والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله، ويقتدي به، وينصف من نفسه؛ لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب"[٤]، وقال ابن القيم- بعد ذكره عدداً من الآيات الدالة على هذا المعنى-: "وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجلا فكفر، وقلد آخر فأذنب، وقلد آخر في مسألة فأخطأ وجهها؛ كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا، وإن اختلفت الآثام فيه"[٥].

وللناس في دفع النصوص إتباعاً لقول عالم من العلماء حججاً يظنونها صحيحة وهي باطلة[٦]، ومن تلك الحجج؛ حجة من يقول : قد يكون للعالِم حجة راجحة على هذا النص وأنا لا أعلمها؟ والجواب عن هذا أن يقال: إن الله تعالى قد قال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/٣٣٨.

(٢) نظم الدرر ٦/١٣٩.

(٣) إعلام الموقعين ٢/١٨٩.

(٤) فتح القدير ٤/٤٣٥.

(٥) إعلام الموقعين ٢/١٩١. وانظر: أضواء البيان ٧/٣٠٩.

(٦) انظر هذه الحجج والرد عليها في مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/٦٧ و ٢٠/٢١٤، واقتضاء الصراط المستقيم، وإعلام الموقعين ٢/١٨٨.

التغابن: ١٦، وقال النبي-ﷺ-:{إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم}[١]، والذي تستطيعه من العلم والفقه في هذه المسألة قد دلك على أن هذا القول هو الراجح فعليك أن تتبع ذلك[٢]، "ولو فتح هذا الباب؛ لوجب أن يعرض عن أمر الله ورسوله-ﷺ- ويبقى كل إمام في أتباعه بمنزلة النبي-ﷺ- في أمته؛ وهذا تبديل للدين يشبه ما عاب الله به النصارى"[٣].

لقد أكد القرآن في آيات كثيرة عطب كثيرين بسبب طاعتهم أحداً-مهما كانت منزلته- في معصية الله، فالله عظيمٌ لا يُتْرك أمره لأمر أحدٍ كائناً من كان؛ ومن الآيات المؤكدة لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ البقرة: ١٦٥ – ١٦٧؛ قال عطاء:"تبرأ رؤساؤهم وقادَتهم وساداتهم؛ من الذين اتبعوهم"[٤]، وقال قتادة:{الذين أتُبعوا}"هم الجبابرة والقادة والرؤوس في الشر والشرك؛ {من الذين اتبعوا}؛ وهم: الاتباع والضعفاء"[٥]، وقال الطبري: يدخل في ذلك كل متبوع على الكفر بالله والضلال أنه يتبرأ من أتباعه الذين كانوا يتَّبعونه على الضلال في الدنيا، إذا عاينوا عَذابَ الله في الآخرة...وإذ كانت الآيةُ على ذلك دَالّةً، صحّ التأويل الذي تأوله السدي في قوله: {ومن الناس مَنْ يَتخذ من دون الله أندادًا} أن الأنداد في هذا الموضع، إنما أريد بها الأندادُ من الرجال الذين يُطيعونهم فيما أمرُوهم به من أمر، ويَعصُون الله في طاعتهم إياهم، وفسد تأويل قول من قال: إنهم الشياطين[٦].

---

(١) أخرجه البخاري٩/١١٢حديث٧٢٨٨.كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله-ﷺ-.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية٢٠/ ٢١٣.

(٣) المرجع السابق٢٠/ ٢١٦.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره٣/ ٢٨٧.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره١/ ٢٧٧.

(٦) انظر: تفسير الطبري٣/ ٢٨٨.

أن الواجب في الأصل إنما هو طاعة الله، وطاعة المبلغ عنه-ﷺ-؛ وإما ما سوى ذلك فإنما يطاع في حال دون حال، ويدخل في ذلك مشايخ الدين ورؤساء الدنيا، ومن نصب إماما فأوجب طاعته مطلقا-اعتقادا أو حالا- فقد ضل في ذلك، ولكن كثيراً من أتباع أئمة العلم ومشايخ الدين؛ يضاهي حالهم حال من يوجب اتباع متبوعه؛ لكنه لا يقول ذلك بلسانه، ولا يعتقده علما، فحاله يخالف اعتقاده[١].إن العالِم قد يكون معذوراً في خطئه، فيتبعه المقلد وهو غير معذور لكونه لم يبذل وسعه في معرفة الحق، فينجو العالِم ويهلك المقلد؛ كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- "أراهم سيهلكون؛ أقول: قال رسول الله-ﷺ-، ويقولون قال: أبو بكر وعمر"[٢]، وقال الشافعي لأحد الفقهاء:"أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيههم؟ ما أحوجني أن يكون غيرك في موضعك؛ فآمر بعرك أذنيه! أقول: قال رسول الله، وأنت تقول عطاء، وطاوس، ومنصور، عن إبراهيم، والحسن! وهل لأحد مع رسول الله-ﷺ- حجة؟"[٣].

إن الأتباع أقسامٌ: قسم يتخذ **التبعية تديناً**؛ وهذه غالبة في أتباع مشايخ الطُرق، وأئمة العلماء، وإن كان هناك من لا تكون تبعيته لهؤلاء تديناً، وإنما لعادة نشأ عليها، أو لغرض دنيوي.وقسم: تبعيته **تبعية حالٍ وعملٍ** وانقيادٍ-من غير عقيدة دينية-، وهذه غالبة في أتباع الرؤساء، وهناك من الناس من يَقْرِن هذه التبعية بالتدين[٤].

إن ظن تحقق النجاة باتباع المتَبعين في الدنيا، والإصرار على السير وفق منهجهم وطريقتهم، ولو كان في معصية الله؛ سيتبيّن لسالكه يوم القيامة فداحة خسارته، وعظيم هلاكه؛ قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الفرقان: ٢٧ – ٢٨؛ قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {ويوم يعضّ الظالم} نفسه، المشرك بربه، على يديه؛ ندما وأسفًا على ما فرط في جنب الله،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية١٩/٦٩.

(٢) أخرجه أبو عمر القرطبي في جامع بيان العلم وفضله٢/٣٧٩.

(٣) أخرجه الهروي في ذم الكلام وأهله٢/٣٠٦.

(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية١٩/٧٠.

وأوبق نفسه بالكفر به، في طاعة خليله الذي صدّه عن سبيل ربه، {يقول: يا ليتني اتخذت} في الدنيا، {مع الرسول سبيلا}؛ يعني: طريقا إلى النجاة من عذاب الله"[١].

إن أتباع الرؤساء والملوك؛ يرجون بتبعيتهم النجاة، مع أن أولئك قد يكونون مستكبرين عن الحق، غير خاضعين له؛ فينادونهم يوم القيامة لينجوهم من العذاب؛ ولكن ذلك لا يحصل لهم، وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه في آياتٍ؛ منها: قوله سبحانه: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ إبراهيم: ٢١؛ قال السمعاني: "{الذين استكبروا}؛: يعني تكبروا على الناس، وتكبروا عن الإيمان، وهم القادة والرؤساء؛ و{فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء}؛ أي :دافعون عنا من عذاب الله من شيء"[٢].وقال برهان الدين البقاعي: قال الضعفاء من أهل الضلال تبكيتاً لرؤساهم وتوبيخاً:{إنا كنا لكم تبعاً} فكان ذلك سبب ضلالنا؛ وقد جرت عادة الأكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على باطلهم، {فهل أنتم} دافعون عنا {من عذاب الله} العظيم الذي لا يطاق انتقامه {من شيء}؛ فقالوا:{من} للمبالغة في التبعيض؛ لأن{من}؛ تدل على التقليل.{قالوا}: لا نغني عنكم شيئاً؛ علينا إثم ضلالنا، وإضلالنا لكم، وعليكم إثم ضلالكم، وذبكم عنا. وبإتباعكم لنا قويتم جانبنا حتى استكبرنا واستغرقنا في الضلال، ولو أنكم اتبعتم الأدلة وتركتمونا لكسر ذلك من شوكتنا فكان سبباً لهدايتنا وهدايتكم، ولكنكم اتبعتمونا وتركتم الأدلة فكان ذلك ضرر علينا وعليكم[٣].

وفي نفس المعنى يحسن بك أن تقرأ قول الله تعالى-في آل فرعون-:﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ غافر:

---

(١) تفسير الطبري١٩/٢٦٢.

(٢) تفسير السمعاني٣/١١١.

(٣) انظر: نظم الدرر٤/ ١٨١.

٤٧ ـ ٤٨؛ قال ابن كثير:"{فيقول الضعفاء}؛ وهم: الأتباع، {للذين استكبروا}؛ وهم: القادة والسادة والكبراء:{إنا كنا لكم تبعا}؛ أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، {فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار}؛ أي:قسطا تتحملونه عنا، {قال الذين استكبروا إنا كل فيها} أي: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال"(١)، وقال البيضاوي: {فهل أنتم مغنون عنا}؛أي:"بالدفع أو الحمل"(٢)، وقال الرازي:"اعلم أن أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف؛ وإنما مقصودهم من هذا الكلام: المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء، وإيلام قلوبهم؛ لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الأتباع في أنواع الضلالات، فعند هذا يقول الرؤساء: {إِنَّا كُلٌّ فِيهَا}؛ يعني: أن كلنا واقعون في هذا العذاب، فلو قدرت على إزالة العذاب عنك لدفعته عن نفسي"(٣).

ونفس ما قيل في الزعماء، والعلماء، والأصحاب؛ يقال في الأنظمة والتشريعات، فإن الاحتجاج باتباعها لا ينجي من عذاب الله، ولا يغني أصحابُها عن متبعيها شيئاً من عذاب الله؛ وقد كشف القرآن ذلك وجلّاه؛ في قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الجاثية: ١٨ - ١٩؛ قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء الجاهلين بربهم، الذين يدعونك يا محمد إلى اتباع أهوائهم، لن يغنوا عنك إن أنت اتبعت أهواءهم، وخالفت شريعة ربك التي شرعها لك من عقاب الله شيئا، فيدفعوه عنك إن هو عاقبك، وينقذوك منه"(٤).وقوله:{والله ولي المتقين}؛أي: الموالون له بالتقوى، واتباع الشريعة(٥)، فيدفع الله عنهم من أرادهم بسوء، وينجيهم منهم، ويحميهم، فكن منهم(٦).قال ابن

---

(١) تفسير ابن كثير٧/ ١٤٩.

(٢) تفسير البيضاوي٥/٩٦.

(٣) مفاتيح الغيب٢٧/ ٦٥.

(٤) تفسير الطبري٢٢/٧١.

(٥) انظر: تفسير البيضاوي٥/١٧١.

(٦) انظر: تفسير الطبري٢٢/٧١.

عاشور:"وجملة: {إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا} تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، ويتضمن تعليل الأمر باتباع شريعة الله؛ فإن كونهم لا يغنون عنه من الله شيئا؛ يستلزم أن في مخالفة ما أمر الله من اتباع شريعته ما يوقع في غضب الله وعقابه، فلا يغني عنه اتباع أهوائهم من عقابه"[(١)]، وبهذا يتبين نفي القرآن لتوهم من توهم أن اتباع شريعة أو نظام –غير شريعة الإسلام– ينجي أو يغني من الله شيء ولو كان قليلاً، بل بيّن أن في ذلك الهلاك والدمار العاجل والآجل.وبيّن الله في هذه الآية أن أصحاب التشريعات والأنظمة والأوامر المخالفة لن ينجوك من الله إن اتبعتهم؛ بقوله:{إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً}، وبيّن أنه سبحانه يتولاك وينجيك منهم إن اتبعت شريعته؛ بقوله:{والله ولي المتقين}؛ فالأمر كما قال الحسن البصري لعمر بن هبيرة[(٢)]–حينما كان أميراً على العراق، فأحضر بعض الفقهاء وطلب منهم أن يفتوه في تنفيذ أوامر الخليفة التي فيها معصية لله–فقال له الحسن:يا ابن هبيرة! خف الله في يزيد؛ ولا تخف يزيد في الله، إن الله ينجيك من يزيد؛ وإن يزيد لا ينجيك من الله، ويوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك؛ يا ابن هبيرة! إياك أن تعصي الله! فإنما جعل الله هذا السلطان نصرة لدين الله وعباده، فلا تتركن دين الله وعباده لهذا السلطان؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[(٣)].

إن القرآن بهذه الآيات العظيمة، وغيرها من الآيات الدالة على نفس المعنى؛ قد كشف ببيانٍ تامٍ أن طاعة الزعماء، والعلماء، والأصحاب، والأنظمة والتشريعات، ونحو ذلك؛ في معصية الله، لا تنجي صاحبها من عذاب الله وبطشه ونقمته، فلينتبه كلٌ لنفسه، وليأخذ للأمر

---

(١) التحرير والتنوير٢٧/٣٦٧.

(٢) عمر بن هبيرة (٠٠٠ – نحو ١١٠ هـ) بن سعد بن عدي الفزاري، أبو المثنى: أمير، من الدهاة الشجعان.أظهر بسالة في غزو الروم، فأكرمه عبد الملك بن مروان، وولاه عمر بن عبد العزيز، ومن بعده من خلفاء بني أمية؛ الجزيرة، ثم العراق وخراسان.وعزله هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ وولى خالد بن عبد الله القسري، فحبسه خالد، لكن لم يطل حبسه؛ فقد أعانه غلمان له على الهرب من السجن إلى هشام ابن عبد الملك، فأمنه.[انظر: سير أعلام النبلاء٤/٥٦٢، والأعلام٥/٦٨].

(٣) انظر: تاريخ دمشق٤٥/٣٧٦، ووفيات الأعيان٢/٧١، وشذرات الذهب١/١٣٧.

أهبته؛ فإن يوم القيامة يومٌ قال الله في وصفه: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ النحل: ١١١، ولن ينجي أحدٌ أحداً إذا أطاعه في معصية الله.